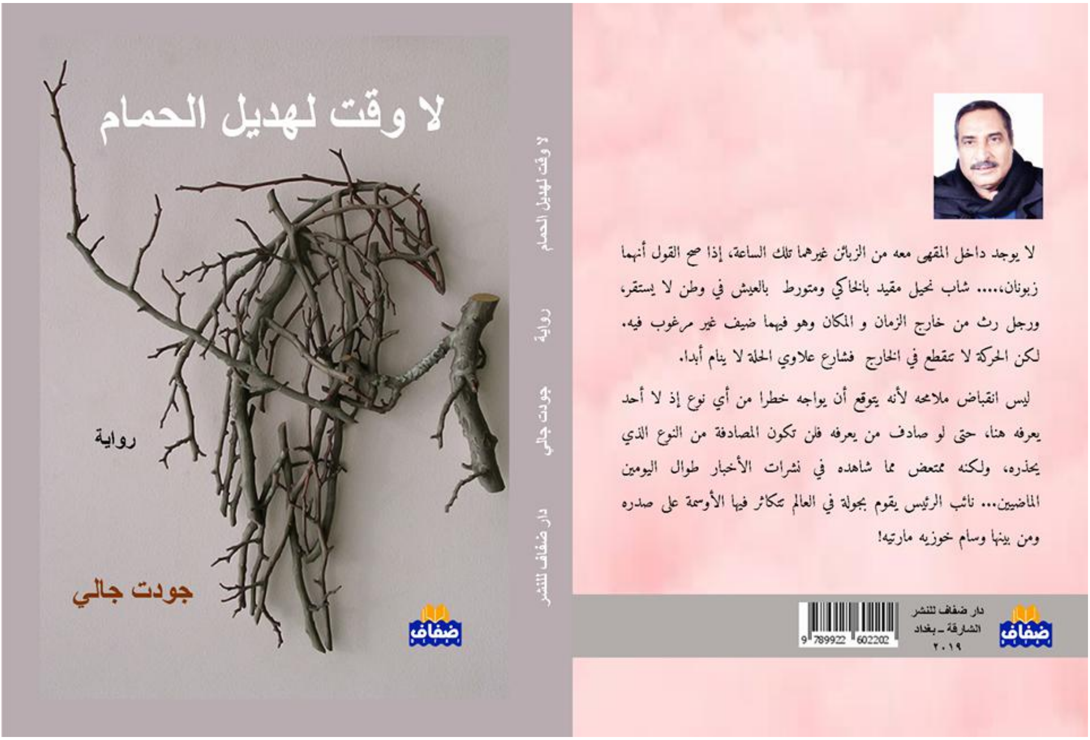


لا وقت لهديل الحمام

الكتاب: لا وقت لهديل الحمام
المؤلف : جودت جالي
الصنف: رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٩ – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع basimalyasiri١٠٠@gmail.com
الإدارة: الدكتور باسم الياسري - قطر: الدوحة ٠٠٩٧٤-٥٥٨٩٨١٨٦ - العراق – بغداد ٠٠٩٦٤٧٧٣٨٠١٠٧٠٢ - تركيا - ٠٠٩٠٥٣٧٢٤٣٣٢٩٩ - الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: ٤٢٩٣
• تصميم الغلاف: دار ضفاف للنشر
• وكيلنا مكتبة الضياء/ نوري السلطاني ج: ٠٧٩٠١٨٧٠١١٧
* الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.
* لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدما.
All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any means,electronic, mechanical, photocopying ,recording ,or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٢٣٠ لسنة ٢٠١٩
تسلسل الكتاب في الدار: ٣٤٠

جودت جالي

لا وقت لهديل الحمام

رواية

إن الأحداث في هذه الرواية، التي كتبها مؤلفها بمناسبة مرور أربعين عاما على أحداث العام ١٩٧٩ ، وإن كانت مستلهمة من الواقع إلا أن الخيال لعب في تفاصيلها وصياغتها دورا كبيرا. إن الشخصيات والاسماء الواردة فيها لضرورات فنية، ولا علاقة لها بشخصيات عاشت أو تعيش في الواقع، وأي تماثل هو مجرد صدفة. ما عدا توظيف الشخصيات العامة والأحداث التاريخية توظيفا فنيا.

١

ينظر ساري الى ساعة المقهى الخشبية ذات البندول. الوقت يقترب من منتصف الليل. يقرر أن يتوجه الى موقف الحافلات داخل المرأب. كان قد خطط لأن يصل، في صباح اليوم التالي الذي هو يوم جمعة، الى مدينة (المعبر) البعيدة، حيث كان يعيش وزوجته لسنوات ، وفكر في البداية أن يستقل قطار العاشرة ليمضي ليلته نائما في كابينة صديق من أصدقائه العاملين في القطار ولكنه صرف النظر عن هذه الفكرة لأنه إذا كان لا مفر من أن يراه أحد معارفه أو زملائه فإنه لا يريد أن يكون ذلك قبل الغد، يوم العطلة الذي لن يصادف فيه أثناء عبوره خطوط السكة إلا أفرادا من عمال المناوبة، وقد لا يصادفهم.

يضع أمامه عامل المقهى ثاني قدح شاي يطلبه ثم يذهب ليطفئ جهاز التلفزيون الذي انتهت برامجه وغطى النمش شاشته وتعالت وشوشته المألوفة. يتلفت ساري حوله وقد انقبضت ملامح وجهه الأسمر الحنطي. ينظر الى الجندي الذي يتمدد على تخت قريب من الباب واضعا تحت رأسه حقيبته العتيقة. يقدر ساري أن هذه الحقيبة رافقت الشاب سنوات كثيرة في وحدات عسكرية شتى ورضخت للنوم تحت رأسه في المرائب. يرى كيف

يغمض عينيه وتتهدل قسماته الشاحبة، وينفتح فمه وتستقر بيريته على جانب وجهه في إغفاءة بائسة لا بد أنها تكررت عشرات المرات في كل ناحية من أنحاء الوطن. يحوّل نظره الى الرجل ذي الملابس الرثة في الخارج وهو يجلس على كرسي خشبي ركيك متروك في زاوية من باحة خارجية للمقهى تكومت فيها أغراض عتيقة الى جانب أخشاب لنار الموقد. يسمعه يقول لعامل المقهى وهو يحك صدره:

-مجبل... شاي... الله يخليك.... مجبل.

لا يوجد داخل المقهى معه من الزبائن غيرهما تلك الساعة، إذا صح القول أنهما زبونان،.... شاب نحيل مقيد بالخاكي ومتورط بالعيش في وطن لا يستقر، ورجل رث من خارج الزمان و المكان وهو فيهما ضيف غير مرغوب فيه. لكن الحركة لا تنقطع في الخارج فشارع علاوي الحلة لا ينام أبدا. ليس انقباض ملامحه لأنه يتوقع أن يواجه خطرا من أي نوع إذ لا أحد يعرفه هنا، حتى لو صادف من يعرفه فلن تكون المصادفة من النوع الذي يحذره، ولكنه ممتعض مما شاهده في نشرات الأخبار طوال اليومين الماضيين... نائب الرئيس يقوم بجولة في العالم تتكاثر فيها الأوسمة على صدره ومن بينها وسام خوزيه مارتيه!

قال أبوه:

-يا لها من طلعة خبيثة التوقيت. إن هذا الرجل بالغ الدهاء!

مع أن أباه يدرك ما يجول بخاطره من تساؤلات ملؤها الخيبة سببتها له أحداث الأيام الأخيرة ، لكنه يدرك أيضا أن ابنه مصمم على العودة ولن يستطيع أن يمنعه. أضاف قائلا:

- هذه هي حقيقة ما يحدث في العالم يا بني وأنتم الضحايا. ضحايا الأمل الرومانسي بحياة أفضل. مسؤولوكم الكبار يتسللون الآن ناجين بحياتهم بضمانات دولية ويتركونكم لمن لا يرحم. انتهت التمثيلية....

لكنه في محاولة للتخفيف من قسوة كلماته أشار الى الرجلين الظاهرين بكامل أناقتهما، أحدهما ببدلة عسكرية لامعة ولحية خالط سوادها بعض البياض وكاسكيت على الرأس وهو يدخن السيجار مع ضيفه العراقي المتباهي بأناقته أيضا والذي يرتدي بدلته المدنية التشارلس:

-... فما معنى هذا إذن... ولماذا الآن؟

ندم ساري لأنه حكى لأبيه عن الذي جرى في المقر والذي جعله يرى أنه من المناسب أن يبعد زوجته وطفلته الى بغداد تحسبا لإحتمال أن تسوء الأمور، وأن تسوء الأمور بالنسبة الى ساري يعني ليس أن يموت أو يُسجن فقط بل أن يكتشف فعلا أنه كان غارقا في حلم رومانسي مهلك أيضا، وبدا له في تلك اللحظات أن هذه هي الحقيقة.

كان قد ذهب الى المقر من دون أن يطلب منه أحد ذلك، من دون أمر حزبي، بعد أن ظل أياما لا يصله تبليغ من الحزب ولا خبر، رأى أن واجبه

يحتم عليه الذهاب وهو العضو في المكتب الصحفي للدفاع عن المقر إذا ما قررت السلطة مداهمته. وجد الباب المكون من قضبان حديدية مقفلا بسلسلة ولكنه عرف أن عددا من رفاقه موجودون في الداخل. ضرب على الباب براحة يده فأصدر قرقعة عالية. جاء ناجي الفتى اللطيف الذي يعد الأطعمة الخفيفة والشاي في المقر. فتح له الباب مبتسما ثم أعاد إقفاله فيما كان ينظر الى الشارع والمحلات في الجانب الآخر باستطلاع متوجس. همس له وهو يفسح له المجال ليتقدمه:

-الوضع متوتر ونتوقع مداهمة في أية لحظة. لو لم تأت لكان أفضل... هذه مخاطرة.

صعد ساري الدرجات الخمس المؤدية الى الباب الخشبي السميك المبني على طراز بيوت العوائل الميسورة في الخمسينيات، وفي أسفله سرداب رحب بمساحة البناء الذي فوقه. هناك عند العتبة التي تآكل خشبها وبلاطها من الدوس عليها وجد الرفيق متّي واقفا مستندا بيد الى إطار الباب فيما وضع يده الأخرى في جيب بنطاله الواسع الذي يذكره أيضا بموضة سراويل الخمسينيات، يقف بوجهه الأحمر الأنمش مميلا رأسه الى جانب وهو ينظر اليه كمعلم يرى تلميذا نابها لديه يتصرف تصرفا غير متوقع يزيد الأمور تعقيدا. لكن ساري لم يفهم الأمر هكذا أولا إذ رأى في نظرة معلمه إعجابا بخطوة لم

يتوقعها، ولكم كان واهما لأن الرفيق القديم الذي عاصر تأسيس الحزب والذي تصور أنه سيسر بمبادرته هذه وبخه قائلا:

_لماذا أتيت؟ ألا ترى الدنيا مقلوبة؟

_أنا لا أخاف منهم.

_نحن نخاف عليك. أنظر الى ما حولك.. الى محلات تصليح السيارات.. عند كل محل سيارة أمن وفي داخل كل محل يجلس رجال أمن..

لم يلتفت ساري لينظر الى الشارع. أراد أن يؤمن الرفيق فعلا بأنه لا يخاف. لكن هذه الكلمات المعبرة عن الشفقة الأبوية لم تسره وبدأت أولى قطرات الخيبة تتسرب الى نفسه. هو إذن غير مرغوب فيه الآن في المقر، هذا المقر الذي كان مكانه المفضل كبيته وشهد نشاطاته الفنية والثقافية واقتراحاته المتحمسة للحزب. نظر الى الرجل البدين الذي تجاوز عمره الستين، حتى تلك اللحظة، وبرغم مراودة الخيبة له، يراه مثالا للمحارب القديم الذي، برغم شيخوخته، يفضل أن يبقى في الميدان ويموت فيه ، على أن يموت في فراشه، حتى لو لم يُقدّر له أن يخوض معركة. تمنى ساري أن يرى رفيقه الكبير وجوده واقع حال ويكلفه أخيرا بأي فعل يمكن أن يعد مقاومة، ليس في المقر بالضرورة، ليس أن يمسك بندقية ويطلق الرصاص. لكن الخيبة التي كان يدافعها بالتعلل والتمني سرعان ما أطاحت بكل دفاعاته مرة واحدة والى الأبد إذ لم تمض دقائق بعد هذا الحوار القصير، وهو لم يتجاوز عتبة المقر

الى الداخل بعد، حين شاهد رفيقه الكبير يخرج من المقر ومعه أربعة، وما داموا يرافقونه، فهم إذن الكبار مثله، قيادة التنظيم. فتح لهم ناجي البوابة وخرجوا. كانت تنتظرهم على مبعدة خطوات من المقر سيارة فيات يجلس فيها سائق وبالكاد تتسع لهم فحشروا أنفسهم فيها حشرا، وانطلقت بهم، وساري لا يزال واقفا عند الشرفة، هكذا بكل بساطة... مروا به يتقدمهم متي، لم يلق عليه حتى مجرد نظرة، ونزلوا الدرجات، ووقفوا باطمئنان فيما كان ناجي يفتح لهم البوابة، وساروا نحو السيارة العتيقة، ومضوا من دون أن يتلفتوا الى ما حولهم، والمحلات المليئة برجال الأمن لم يخرج منها أحد شاهرا سلاحه ليمنع هروب الصيد الثمين من الفخ.

أطرق ساري مذهولا ينظر نظرة تائهة الى البلاط الذي عند قدميه ثم ارتعش جسمه وكأن هذه الارتعاشة التي هزت جسمه وعقله معا أعادت اليه توازنه ورباطة جأشه فرفع بصره الى المحلات والسيارات الواقفة. لا شيء مريب، الحركة عادية ككل يوم، إلا أن السيارات والناس أكثر من كل يوم مع أن الساعة تجاوزت الرابعة عصرا والمحلات في هذه الساعة تكون عادة مغلقة، ولم يرصد سوى نظرة أو نظرتين عابرتين نحو المقر، وربما كانت هاتان النظرتان نحوه....

نبهه صوت ناجي الى أنه يقف الى جواره. التفت اليه، فسر نظرة ناجي هذه المرة على أنها اطمئنان لأنه موجود معه، ففي ساعات حالكة كهذه يبعث

حضور الذي تألفه النفس بعض الهدوء فيها، إذ طالما جلسا سوية في ظل الحديقة الخلفية وتبادلا الأحاديث والطرائف.

تصور ساري أنه وناجي الوحيدان الباقيان في المقر ولكنه حين دخل الصالة الخلفية تبين فيها وسط العتمة المتزايدة مع اقتراب الليل رجلين عرف أحدهما وهو كميل مسؤوله الحزبي والثاني يرتدي زيا أعرابيا شاهده مرات في المقر من قبل ويأتي من قرية في الريف. ظلا جالسين في مكانهما فيما تقدم هو وجلس على كرسي ثالث قبالتهما. نظر اليهما عن قرب، بدت عليهما الكآبة. لا بل أن كميل لم يبذل أقل جهد لإخفائها عنه كما يفترض وكان يفرك يديه ويحركهما بارتباك، ولأنه سمع من متي قبل قليل ما سمع، فكر بأنهما ربما مثل متي غير راضيين عن وجوده. لم يعد واثقا من شيء بشأن مجيئه الى هنا. نظر الى ما حوله. رأى ناجي يحضر مصباحا نفطيا غير مشتعل ويضعه على المنضدة ويخرج. انتبه الى أن التيار الكهربائي مقطوع. تمتم:

_الكهرباء

قال له المسؤول:

_قطعوا التيار الكهربائي عنا.

وجال ببصره على أشياء الغرفة الغارقة في ظلالها الرطبة. لاحظ ساري أنه لا يوجد سلاح قرب الرجلين ولا في أي مكان من الصالة وفيما كان ملتفتا نحو الباب يتساءل في سره أين ذهب ناجي شده صوت المسؤول:

_اقتراحك....

وتنحنح ليذهب الحشرجة من صوته.

نظر اليه ساري متفاجئا:

_ماذا؟

_اقتراحك الذي اقترحته بشأن التنظيم السري الرديف....

_أجل؟ وماذا عنه؟

_هل نفذت منه شيئا؟

هز رأسه بالنفي وقال:

_أنت تعرف يا رفيق أن الحزب رفض المقترح.

سبق لساري أن إقترح أن يقام تنظيم سري، من الكسب الجديد ومن الشباب حصرا، قادر أن يباشر بمقاومة مسلحة، بطريقة الاغتيالات، ما أن تنكث السلطة الحاكمة بوعودها في حياة ديمقراطية ويتعرض الحزب لهجمة تصفية.

للوهلة الأولى بدا لساري أن مسؤوله اقتنع، في الوقت الضائع، باقتراح اقترحه منذ أشهر وتم رفضه وقتها. لولا أن الظرف ومزاجه لا يسمحان له بإبداء أي تعبير من تعابير الاستخفاف لأطلق ضحكة مدوية لهذه المفارقة. عندما كان ممكنا الإفادة من المقترح رُفض وعندما لم يعد يوجد ما يكفي من الوقت للإفادة منه سُئل عنه. لكن ساري لم يظهر أي رد فعل إذ خطر له

فجأة، وهو يلاحظ أكثر من دليل على ما ظنه إرتباكا في وضع رفاقه إن لم يكن في وضع الحزب نفسه، أن الكثير من الأشياء حدثت خلال الأيام القليلة الماضية وقد يكون غير عارف أمام مَن هو ولمن يتحدث الآن. إن سؤال الرجل ليس له مبرر معقول إلا أنه ربما يريد معرفة أسماء. قرر من تلك اللحظة أن يطوق نفسه بالاحتراس ويوحي للرجلين، للضمان والتحوط، بأنه لا يملك غير حضوره معهما ينفعهما به.

لكن..... ربما أيضا يكون مخطئا في شكوكه وكل ما في الأمر أنه متبلبل التفكير وأنه يجلس الآن أمام رجلين بقيا مع تعليمات محددة وجهها الحزب اليهما وعليهما تنفيذها، وهو لا يفعل بوجوده معهما سوى إرباك ما تم التخطيط له. إذا كان هذا صحيحا فإنه حشر نفسه في مكان غير مناسب لما عده مقاومة ولهذا عليه الانسحاب وسيرى فيما بعد خطوته التالية. رأى هذا استنتاجا معقولا. نهض وذهب يبحث عن ناجي فوجده يشغل الطباخ. طلب منه قلما وورقة. ذهب الى الكرسي والمنضدة في الركن وجلس يفكر ثم كتب:

«رفيق... إذا لم نستطع الإلتقاء هنا فبعد أسبوع في بغداد، العاشرة صباحا في مثل هذا اليوم. عند نفق الباب الشرقي من جهة شارع السعدون. إذا كان ممكنا سنلتقي هناك. إحرقها رجاء»

وطواها عدة طويات وذهب ليضعها بيد المسؤول الذي عرف أن ساري ، بإعطائه هذه الورقة، يريد المغادرة فرآها مناسبة لقول ما كان محرجا من قوله:

_سنغادر في توقيت معين. أما أنت فمن الأفضل لك، وقد حل الظلام، أن تعبر من السياج الخلفي وتمضي في الأرض الفضاء التي خلف المقر ومن هناك تسلك الى حيث تريد..

ثم ربت على زنده وقال:

_إعتن بنفسك.... لا تقع في أيديهم.

-هل هذا يعني يا رفيق أن التوجية الحزبي هو "كل واحد يتدبر انقاذ نفسه"؟

-الوقت غير مناسب يا رفيق للنقاش في هذا الموضوع.

-ألا تعلم يا رفيق بأنه يوجد في عموم العراق الآن الآلاف من الشبان، فتيانا وفتيات، انتموا بإخلاص وتصوروا ببراءة أن الجبهة مع حزب السلطة ستدوم فنشطوا في المجتمع كاشفين عن ميولهم. السلطة الآن تعرفهم واحدا واحدا وستبطش بهم وتكون النتيجة أن يتملكهم الإحباط ويشعرون أنهم قد خُدعوا وتُركوا لمصيرهم. سيُعدم قسم ويُسجن قسم آخر وينهار العديد منهم ويتحولون الى أدوات خطرة بيد السلطة، وسيغتصب رجال الأمن الفتيات ليحطوا من كرامتهن وليحطموا شخصيتهن. هل تعرف ما معنى هذا يا رفيق؟ معناه دمار اجتماعي، معناه أن ثقة الناس بالحزب ستتلاشى ولن

يستعيدها أبدا، معناه أنك تحدثني وكأننا كنا نلعب لعبة ومللنا منها وكل واحد ينصرف الى شأنه... هل الأمر بهذه البساطة الفاجعة؟

-....................!

إن ساري الذي كان يأمل أن يخوض معركة مع السلطة من هنا، يوجه فوهة بندقيته من واحدة من نوافذ المقر الكثيرة ويظل يقاوم الى آخر رصاصة، وإذا كان لم يخض من قبل معركة بالرصاص فقد قرر أن تكون هذه أول وآخر معركة في حياته وأكثر معاركه جدوى. أما وقد أضطر الى الإنسحاب لأنه تبين أن هذا ليس الميدان الذي ظن فعلى الأقل لن يقبل أن يكون إنسحابه هزيمة، أن يكون هربا بطريقة يؤرقه خزيها طوال حياته. حدق في الوجه الهزيل الذي إزداد هزاله وضوحا وإكتسى اصفرارا بضوء المصباح الذي أشعله ناجي للتو. قال لافظا الكلمات ببطء قاصدا أن يفهم المسؤول أنه غاضب لهذا الإقتراح المذل:

_ولماذا أعبر السياج كاللص؟.... توجد بوابة أخرج منها كما دخلت منها.

نظر الرجل الى ساري ينادي على ناجي بصوت قد يكون مسموعا حتى لمن هو أمام المقر في الشارع:

_ناجي.... إفتح لي البوابة!

وقف ناجي مترددا أول الأمر وقد فاجأه طلب ساري ثم أخرج المفاتيح من جيبه وتبعه.

كان ناجي يعرف مسبقا رأي ساري في الجبهة مع حزب السلطة، ولطالما تحدث ساري معه في مساءات سابقة عن هذه العلاقة التي يتصرف بها حزب السلطة متفردا في القرارات مبيتا نية الغدر في الوقت المناسب. قال ساري له إن رفيقهما العجوز، العم عبد العزيز، قال مرة، أثناء حكاية من حكايات العمر "إذا آذاك شخص عامدا قد يبدي ندمه واعتذاره فيما بعد لأن ظرفا ما أجبره على إبداء الندم والاعتذار ولكن هذا لا يعني أنه أصبح نادما حقا، لا تصدق أنه تغير!" وساري يرى أن الأشخاص الذين يحكمون البلد الآن هم أنفسهم من سجن وعذب وقتل وأعدم الرفاق في العام ١٩٦٣ ولا أدري كيف يمكن أن يتحول هؤلاء الى ديمقراطيين فجأة والدماء لم تجف على أيديهم بعد؟ أليس حظرهم نشاطات المنظمات الجماهيرية للحزب الشيوعي وإعدام العديد من منتسبي الجيش بتهمة الإنتماء للحزب الشيوعي وإعدام شبان رياضيين هم فخر للوطن ورمز له دليل على أن الذئب هو نفسه ذلك الذئب؟

دثر الليلُ الشارعَ بظلمته، إلا أن عددا من السيارات لا يزال في مكانه أمام المحلات واستطاع أن يرى أن بعض هذه المحلات لا تزال أبوابها مفتوحة، وإن لم يلحظ فيها حركة. انتظر أن ينهي ناجي فتح القفل محاولا أن لا يصدر صوتا عاليا، وانفلت بسرعة الى الشارع دون أن يودع ناجي أو يهمس له بأي شيء فقد ركز تفكيره على الإفلات من قبضة رجال الأمن. مشى بعكس

الاتجاه الذي جاء منه بعيدا عن المحلات مؤملا أن يقطع مسافة يستره الظلام بعدها الى أن يصل أقرب شارع تكثر فيه حركة السيارات والناس فيدس نفسه بينهم. لكنه قبل أن يقطع مسافة بعيدة سمع وقع الخطوات على إسفلت الرصيف يتبعه، فجأة وليس تدريجيا، كأن صاحبها كان مختبئا خلف حائط أو شيء، أو خرج له من تحت الأرض!

التفت، من دون أن يبطئ سيره، وعلى ضوء مصباح سيارة استدارت في ساحة بعيدة رأى الشخص رؤية خاطفة لم تمكنه من ملاحظة كل التفاصيل إلا أنه عرف من هيئته أنه شاب ممشوق القوام مائل الى البياض وشعره أشقر، وجميل على الأرجح، خطر لساري لحظتها خاطر غريب من أن الشاب، مؤكد أنه شاب ورياضي كما توحي خطواته واستقامة جسمه، يشبه وهو بمعطفه الأنيق الطويل غامق اللون ممثلا فرنسيا لا يتذكر اسمه رآه في أحد الأفلام يسير هكذا في مشهد مماثل، حتى المكان، حتى الشارع، والوقت، كما في ذلك الفيلم.

لم يبد على الشاب ذي المعطف أنه متوتر ومستعجل. كان يضع يديه في جيبي معطفه ويسير بإيقاعات رتيبة لم يجعلها أسرع حتى عندما غذ ساري السير آملا أن يصل استدارة الشارع مع وصول الحافلة اليها والتي رآها قادمة نحوه في الشارع المظلم وعرف أنها حافلة لنقل الركاب بأضواء المصابيح داخلها والجابي الذي يتنقل بين الركاب. حتى هنا لم يسرع الشاب وبقيت

ايقاعات خطواته هي نفسها ومع ذلك لم يبد لساري أنه سيستطيع جعل المسافة بينهما أطول، أسرع ساري إلا أن الذي خلفه لم يكلف نفسه عناء الإسراع، وبقيت الإيقاعات نفسها، والمسافة نفسها.

لم يلتفت ساري مرة أخرى إلا حينما سمع صوت الحافلة الهادر يقعقع وهي تبطئ مقتربة من الإستدارة. نظر اليها ليقدر المسافة بينه وبينها ويتهيأ للقفز الى داخلها ما أن تصل اليه ونظر نظرة خاطفة بطرف عينه الى الشاب الذي لم يبد عليه أن وضع ساري أو ما ينوي فعله للإفلات يعنيه في شيء. يمشي بهدوء ويديه في جيبه، مرت الحافلة به ولم يلتفت اليها، ظل ناظرا أمامه ويسير بطريقته التلقائية. رفع ساري يده ليتمسك بحديدة الباب الجانبية للباب الخلفي ولا يعرف كيف قفز وأصبح في داخل الحافلة، ولما استطاع الاستقرار في وقفته ونظر الى الخلف ليرى أين أصبح مطارده كانت الحافلة قد استدارت ودخلت شارعا آخر فلم يعد يراه.

بعد أسبوع لم يأت كميل ولا غيره للقائه.

٢

يفكر بأن شم الهواء البارد الطلق سينعشه فينهض تاركا على تخت المقهى نسخة من مجلة الإذاعة والتلفزيون قضى بعض الاوقات يتصفحها وهو يتنقل بين المقاهي في شارعي السعدون والرشيد منذ عصر هذا اليوم قبل أن يعبر جسر الصالحية الى علاوي الحلة. يسمع في لحظة نهوضه صوت أم كلثوم ينبعث من مكانٍ ما مجاورٍ للمقهى، صوت صداح أول مرة ثم يقوم بخفضه أحدهم. يفكر ساري أن سماع أم كلثوم تنوح وتولول قربه مبرر قوي آخر للمغادرة.

عاش في مراهقته وأول شبابه بين أصدقاء كلهم كانوا يبدون اعجابهم بأم كلثوم في حين كان هو يكاد ينفجر مللاً وهو يستمع اليها تعيد وتكرر نفس الكلمات، الكلمات التي يراها في بعض أغانيها مليئة بالتذلل والخضوع المقرف، والموسيقى التي لا تحرك في نفسه شيئا، وأصبح فيما بعد يكرهها ونزلت في نفسه منزلة العدو الشخصي اللدود عندما سمع أنها قالت عن الطلبة الذين تظاهروا في مصر "دول عيال مجانين" واعتبرها مستحقة لما قاله أحمد فؤاد نجم، أحد الشعراء المحببين اليه، في قصيدة سمعها من تسجيل من

التسجيلات المتداولة سرا وحفظها عن ظهر قلب:

"يا ولية، عيب اختشي

يا شبه إيد الهون

ده انتي اللي زيك مشي

يا مرضعة قلاوون

مدحتي عشرين ملك

وميت وزير ورئيس

مروان، وعبد الملك

والمفتري، وعتريس

بتغني بالزمبلك؟

ولا انتي صوت إبليس

من أول المبتدا

حتى نهاية الكون؟"

وصار يستنكر أن يبقى أحد أصدقائه الذين يشاركونه أفكاره في الحياة معجبا بها مثلما كان ينكرا انكارا شديدا على آخرين أن يجتمعوا ليلا كعادتهم في زاوية من زوايا متنزه الحي المظلمة ليحتسوا العرق ويهزوا رؤوسهم طربا على صوت عبد الباسط، وكلا الحالين بالنسبة اليه عين الشذوذ والانحراف. كان يكره الابتذال ووضع الاشياء في غير مواضعها، ويكره التعقيد، ويشعر

أن تصرفا مثل هذا يخلق تركيبة شاذة، معقدة، مناقضة للمثال، والمثال بالنسبة اليه الوجه الآخر للبساطة. ليس ايمانا دينيا، نعم ليس إيمانا دينيا، وإن آمن بأن المقدس هو مثال أيضا، ولذلك، برغم أنه في طفولته استولت عليه رغبة جارفة بالتجديف، تقليدا لأطفال آخرين ربما، فكان إذا حرمته أمه من شيء أو صنعت طعاما لا يحبه يصعد الى السطح ويجدف ليغيظها بصوت عال يسمعه حتى الجيران وهي تتوسل به من أسفل الدرج بصوت واطئ أن ينزل أو يسكت على الأقل، الى أن جاء يوم صادف فيه أن شرع بتقليده المحبب اليه هذا في نفس الوقت الذي صعد فيه جارهم العجوز أبو حنون ليؤذن فوق السطح بصوت مرتجف ضعيف للصلاة كلما وجد في نفسه القدرة على الصعود الى السطح ثم ينزل للصلاة.

رماه أبو حنون بقطع صغيرة من الملاط وجدها عند سياج السطح وتوعده أن يخبر أباه بما فعل، وعندما جاء أبوه من العمل استوقفه أبو حنون في الشارع وقال له:

-ابنك ساري يحتاج الى أن تبذل مزيدا من الجهد في تربيته....

-ماذا؟ ما هذا الذي تقوله يا حاج؟

وهكذا حكى العجوز لأبيه ما كانت تخفيه أمه عنه، فغضب غضبا شديدا، وبعد أن نالت الأم نصيبها من التوبيخ عاقب ساري عقابا لم يعاقبه بمثله قبل ولا بعد إذ جرده من سروال بيجامته وجلده بحزامه على مؤخرته فيما كانت

أمه تدور في المطبخ تفرك يديها وقد اصفر وجهها قلقا على ولدها دون أن تجرؤ على مجرد الخروج من المطبخ أمام الرجل الغاضب. قضى ساري وقتا طويلا يفرك مؤخرته ويبكي بكاء شديدا وهو منطوٍ في البيتونة ولم ينزل منها إلا عندما صعدت اليه أمه واحتضنته وقبلته مرات وأقنعته بالنزول ليأكل من التمر الذي حضرته له خصيصا بالسمن والسمسم. لم ينفع هذا العقاب في منعه من التجديف وإن أصبح تجديفه على فترات متباعدة وغير مُشْهر كالسابق وشيئا فشيئا برأ من هذه النزوة التي كلما تذكرها بعد سنوات شعر بالخجل وصارت تأخذ جُلَّ وقته قراءةُ مجلات وقصص الأطفال، التي عرّفه بها أحد التلاميذ في صفه وأهداه عددا منها.

شب بعد ذلك هادئا دمث الأخلاق على عكس طفولته التي كان فيها كثير اللهو والضجيج، وذات مساء، بعد سبع سنوات، قال أبو حنون لأبي ساري وهو يهز رأسه إكبارا وإعجابا:

-ابنك هذا سيد من السادات، الله يحفظه، لا ينقصه شيء غير الصلاة.

لكن أبا ساري لم يقل لأبي حنون أن ابنه ساري الآن هو أبعد عن الصلاة من أي وقت مضى فقد اعتنق مثله الخاصة، وإن لم يكن يكفر بمُثُل أهله ومجتمعه، بل أنه ذات مرة، وكان لا يزال مراهقا، وبخ صديقا له لأنه كفر وقال له "... إحسبها ببساطة... إذا كان الله موجودا فالكفر به سفاهة، وإذا لم يكن موجودا فالكفر به تفاهة" ثم أضاف وهو ينظر الى صاحبه برأس مرفوع

قليلا كأنه ينظر اليه من علٍ مستمتعا بالكلمات التي تخرج من فمه كالإلهام دون تفكير مسبق.. "ثم لماذا نجرح مشاعر الآخرين... ألا نقول بأن من حق الإنسان أن يؤمن بما يشاء؟ حسن ، إذا سمعك متدين ستكون قد اعتديت عليه بكلامك هذا أو جرحت مشاعره". استمع اليه الصديق منذهلا ولم يملك إلا أن يسأله بفضول:

-هل تعلمت هذا الكلام من الكتب يا ساري ؟ كنت كأنك تقرأ في كتاب....

أجابه بشيء من الإعتداد بالنفس:

-لا... لكن الكتب تساعدك في أن تفكر مثل هذا التفكير وتقول مثل هذا الكلام.

يبتسم ساري وهو يتذكر، إلا أن هذا كله يصبح الآن بنظره من الماضي، من الطرف الآخر للحياة، أو الطرف الآخر للنسيان، لا فرق.

يمرّ بعامل المقهى عند الموقد وينقده ثمن قدحي الشاي وينصرف من هناك خارجا من باب الواجهة الزجاجية التي تفصل ما بين الجزء الشتوي المسقف من المقهى والجزء الصيفي المكشوف الذي تتوسطه شجرة توت فارعة. يمر بالرجل الرث الذي يردد ببرم وهو ينظر الى السماء:

-يعني لازم واحد يصيح!... وين أولّي يا مجبل؟...

يضربه هواء منتصف الليل الشتوي. يزرر قمصلته مارونية اللون عند رقبته ويرفع ياقتها. يصبح عدد السيارات والمشاة أقل مما كان عليه أول الليل، ينظر يمينا ويسارا الى رجال بأعمار وأشكال وأزياء مختلفة يسيرون تحت أضواء المحلات الساطعة خالقين دروبا وهمية متقاطعة يقف هو على هامشها، مع ذلك فالكثير منهم إما عازم على السفر مثله أو قادم منه للتو، وينظر الى المطاعم التي لا تزال تقدم خدماتها الى الزبائن، ينتبه الى أنه لم يأكل شيئا منذ طعام الغداء الذي تناوله مع والده الذي حاول إقناعه بالبقاء وعدم السفر، أو على الأقل، أن يسافر بعد تسوية قضيته هنا في بغداد حيث لدى أبيه أصدقاء ومعارف حتى في حزب السلطة لكي لا يتعرض الى الأذى هنا.

-كيف أسوي القضية؟ هل في الأمر تسوية يا أبي؟

-إبن عمك داود في الفرقة الحزبية. يمكنني أن أقنعه بترتيب تعهد....

سكت أبوه لحظة، هو لا يزال على يأسه من أن يصرف ساري النظر عن العودة الى المعبر، مع ذلك واصل كلامه مبتسما ابتسامة ذات معنى وقد خطرت على باله النقاشات الحامية التي كانت تدور أحيانا بين ابنه وابن أخيه:

-سيسر داود أن يأخذ منك تعهدا...

ثم أضاف:

-تبقى فترة هنا الى أن تهدأ الأمور ولكنك إذا ذهبت الآن فستتعرض الى الضرب والتحقيق ولن يقنعوا منك بأقل من معلومات مفصلة. دع غيرك يعطيها لهم!

لم يكن ساري ناسيا القصة الطويلة لإختلافه في الرؤية مع أبيه، أو متجاهلا من جانب آخر رغبة أبيه الصادقة فيما يراه إنقاذا له، غير أنه على يقين من أنه الآن في اللحظة المركزية التي تعتمد فيها كل القرارات على رؤيته هو، اللحظة التي يتراجع فيها كل شيء ليكون القول الفصل لموقف شخصي، وتتلون كل الأشياء بألوان شخصية، لا يقول لك حزب أو شخص ماذا تفعل وماذا تقول، هو وحده عليه أن يقرر.

يعطي تعهدا لداود.... ثم ماذا؟ يقضي ما تبقى من حياته يتملقه أو يتملق من هو على شاكلته؟ فكر بأن الحفاظ على الكرامة الشخصية في هذا الوضع يكون أحيانا ضمانة لكرامة الآخرين. لم يأت الى بغداد ليعطي تعهدا مراوغا بل جاء بزوجته وطفلته الوحيدة الى أهله حيث يكونان في أمان إذا ما ازدادت الأمور سوءً.

-ها.... ماذا تقول؟

حاول أن يتهرب من الجواب المباشر:

-يا أبي.... أثاثنا وأغراضنا لا زالت في البيت. هل أتركها لمدة لا أدري كم تطول؟ ثم لا تنس أني موظف والدار تابعة للشركة....

-لا تفكر في الوظيفة الآن... لا زلت في مقتبل العمر وفي بداية خدمتك. يمكنك تقديم عريضة إعادة الى الوظيفة فيما بعد......

- أرى أن أذهب الى البيت وأشحن أغراضنا... ثم نرى.

لم يكن يستطيع تحمل فكرة أن يبقى مختبئا هنا بينما يكسر رجال الأمن قفل باب البيت في مدينة المعبر ويعبثون بالأثاث والأشياء الخاصة بعائلته ويبقى البيت مفتوحا لكل من هب ودب يتجاسر على دخوله. لا...لن يمنحهم هذه المتعة. تمثيلية أو غير تمثيلية... هذا لم يعد يعنيه الآن.

٣

يسير متمهلا نحو المرأب وهو يعرج في خطوه عرجا غير ملحوظ. يتجاوز المحلات ومحطة الوقود الصغيرة التي لا تكاد تتميز عما جاورها لولا مضختها الوحيدة المنصوبة على رصيف صغير تحت مظلة، ويعبر سكة القطار القديمة التي تؤدي عبر الشارع الى بناية محطة السكك القديمة التي صار يشغلها نادي العمال. يتوقف الى أن تمر حافلة (دك النجف) ثم سيارة (رف) يصدر عن عجلاتها ضجيج عال. يعبر الشارع ليسير بمحاذاة سياج الآس.

يجد مقاعد شاغرة في حافلة منشأة نقل الركاب فيجلس في أحدها الى جوار زجاج النافذة الواسعة المظللة ويغمض عينيه محاولا أن ينام بانتظار أن يكتمل عدد الركاب. بعد ساعة أو أقل يسمع هدير المحرك ينشط ويتعالى ويشعر بحركة الحافلة وهي تستدير استداراتها المألوفة لديه عندما تتحرك خارجة من المرآب متوجهة نحو شارع المطار، يفتح عينه ويلتفت الى الناحية اليمنى، لا يزال المقعد المجاور لمقعده شاغرا ولم يهتم كثيرا للأمر إذ يحدث أن تنطلق الحافلة بمقاعد شاغرة، خصوصا في وقت متأخر من الليل، إذا لم يكن يوجد ركاب آخرون.

ينظر ساري عبر الزجاج، عبر الظلمة، عبر السياج الحديدي المشبك لمنطقة المحطة وقطاراتها المتوقفة على الخطوط، ومبنى قسم صيانة القاطرات وسقيفته اللذين يبدوان في تلك الساعة ككائن خرافي هائل أسود متكور على نفسه، ومئذنة الشيخ معروف خلفه تبعث نورها الوحيد، ومحطة البضائع بساحاتها الموحشة، ومعامل الشالجية التي حمل منها معه بعد انتهاء فترة التطبيق المهني قبل سنوات أسوأ ذكرياته.

يلتفت ساري بعصبية الى الجهة الأخرى، جهة المطار الفارغ. منظر المطار مترامي الأطراف يوحي بالسكينة المختلطة بالوحشة والتي تزيدها وقعا في نفسه الظلمة وسطوة القلق. ثم لا يلبث أن يسند رأسه الى زجاج النافذة ويغفو. أحيانا يفز لخدر في ذراعه أو ألم ينتاب رقبته فيغير وضعه ويروح من جديد في نوم هادر مع المحرك تهزه أضغاث أحلام لا يتذكر منها، إذا ما فز منتبها، شيئا ذا معنى، غير أن صورا أخرى تدخل، تختلط مع بقع ودوائر ذات ألوان مترجرجة كابية أو تخرج من بينها وقد حملت عليها آثارا من تلك الألوان، أمينة وهي لا تزال ذات ضفائر تأتي من الدكان راكضة وهي تحمل زجاجتي البيبسي كولا الباردتين له ولأخيها جعفر الجالسين قرب باب البيت على كرسيين من الألمنيوم يتحدثان، تعطيهما الزجاجتين ويفتح جعفر السدادتين بأسنانه ويضحكان، وتضحك أمينة معهما ثم تجلس قربهما على الأرض تمد رجليها وترتب ثوبها وتظل تنظر الى ساري الذي يكبرها بخمس

سنوات وتبتسم فيرتبك ولا يعود يستطيع مواصلة الحديث، يرفع يده كأنه يريد ضربها "ما لك صافنةً علي وتضحكين؟" فتتحول ابتسامتها الى ضحكة مكركرة، ثم أمينة وهي أكبر، جميلة ممتلئة الجسم بارزة النهدين وترتدي ثوبا من القديفة اللامعة الزرقاء، تفتح له الباب فلا يعرفها أول وهلة ويسألها بأدب عن جعفر، تبتسم له وعلى وجهها تعبير لوم محب لأنه لم يتعرف عليها فيخجل. ثم ابنته وهي تسير خطواتها الأولى بشكل مفاجئ....

هذا ما أثار دهشته بالأمس عندما أفلتت من بين يدي أمها وتقدمت نحوه بخطواتها المرتبكة وقد مدت يديها اليه وهو جالس على الأريكة بعد العشاء وكانت زوجته (أمينة) جالسة على الأرض، ووالده متربع على الأرض أيضا ومستند بظهره الى الأريكة الثانية منشغلا بمشاهدة المسلسل المصري وهو يدخن ومنفضة السجائر أمامه على البساط، فيما كانت والدته وشقيقته في المطبخ ترتبان الصحون وشقيقاه في الخارج عند الباب يتبادلان الحديث مع صديق لهما، وبين الحين والآخر، يسمع ضحكهم. أمسك بيدي إبنته مبتسما وأسندها في مشيتها برفق حتى أصبحت بين ساقيه ووضعت يديها على فخذيه. حانت منه التفاتة نحو زوجته ولا يدري لماذا خامره الظن أنها ليست المرة الأولى التي تسير فيها، ربما فارقت الزحف خلال اليومين الماضيين، وأن أمها تعمدت دفعها نحوه لغاية استشفها في ابتسامتها، ابتسامة هي مزيج من الأمل والتوسل في أن تحرك من اعماقه رؤيته لإبنته وهي تخطو خطواتها الحبيبة

الأولى، مع فرحته، رغبةً في أن يترك كل شيء ويبقى الى جوارها وجوار ابنتهما، لشهر في الأقل، الى أن تتضح الأمور.

كانت قد قضت بضعة أيام في بيت أهلها الذي صار يتحكم فيه أخوها الأكبر، مفوض الشرطة حسون، بعد وفاة والديها وسفر أخيها جعفر الى الخارج للحصول على شهادة الماجستير. حسون غاية في البخل واللؤم، مجرد من عاطفة الأخوة، لا يهمه سوى رضا زوجته ولا بد أنها هي التي أخبرته منذ أول يوم بأن أخته جاءت "هاربة" مع زوجها من المعبر خوفا من اعتقال رجال الأمن لزوجها وربما ستطول إقامتها عندهم. وكان هو يعرف طبعا الوضع العام وما يجري في البلد فرجح أن ساري ، كما فعل الكثيرون، سيغادر الى الخارج ويترك زوجته وابنته يتحمل هو عبء معيشتهما، فلم يضيع الوقت وقال لها وهي لم تنته بعد من تناول طعام الإفطار صباح اليوم الثالث بعد أن استفسر منها عن بعض الأمور وحاول بشكل غير مباشر أن يعرف ما إذا كان في حقيبتها ما يسد تكاليف اقامتها عندهم في الأشهر القادمة على الأقل :

-أمينة.... طبعا تعرفين أني أخوك الأكبر أرحب بك، وأنت في بيت أهلك، ولكن تكاليف المعيشة صعبة وأنت ترين كم هي الحياة قاسية. لذلك لا بد أن تتدبري سد متطلبات معيشتك أنت وطفلتك..

نظرت اليه وقد فوجئت بكلماته:

-يعني ماذا أفعل؟

أجاب وهو يهز يده ليفهمها أنه ليس أقل حيرة منها:

-يعني.... تعملين أو تأخذين من أهل زوجك مصروفا شهريا.... أليسوا أهله وهم المسؤولون عنك؟ وثقي أنك على الرحب والسعة هنا.

نظرت الى زوجته التي كانت تعيد صينية الأكل الى المطبخ. رأتها تسير مطرقة وظل ابتسامة ماكرة تحاول كتمها تتراءى على قسمات وجهها. قالت أمينة له:

-اطمئن يا أخي. أنت على حق من ناحية كونهم المسؤولين عني وعن ابنته، وأنا من البداية جئت لأراكم وأسلم عليكم وليس للإقامة معكم...

عندها اسكتها وحلف لها أنه لم يقصد أن تتحمل كل تكاليف المعيشة بل بعضها وسيكون هو مسرورا لتحمل باقي النفقات وهي أخته الصغرى العزيزة، فلا تذهب بها الظنون بعيدا. لكنها لاحظت علامات الإرتياح تتلألأ على محياه وهو يتكلم.

كذبت عليه بقولها أنها جاءت في زيارة سريعة لهم، وكانت في الحقيقة تأمل أن تبقى بضعة أسابيع في بيت أهلها، بعد أن قضت أسبوعا عند أهل زوجها. شعرت بعد كلام أخيها هذا أنها على حافة الضياع حقاً إن لم يكن معها ساري .

في الليل، بينما كانت وساري نائمين جنبا الى جنب في فراش على الأرض، في غرفة على السطح متروكة وفارغة من الأثاث، وطيبة نائمة نوما عميقا في

فراشها الى جوار أمها، لم يملك، برغم همومه، إلا أن يبتسم وهو يشم العطر الذي تعطرت به أمينة ونامت الى جواره بثوب النوم الساتاني الوردي الشفيف الذي حرصت أن تجعله ضمن أشيائها التي أحضرتها معها الى بغداد. فكر أن المرأة تحاول بكل وسيلة، ولو كان العالم يحترق، أن تعيش حياتها، وتمارس ما تراه جديرا بهذه الحياة. وها هي أمينة قد أشهرت بعض أدوات فتنتها، بعض ما سمح لها المسار الملتهب لهذا النيزك المسمى وطن أن تحمله معها، لتثبت وهي مهددة بالخسارة من كل جانب أنها لم تخسر كل شيء وهي، المرأة، تعلن للوجود أنها موجودة ولن تكف عن أن تحيا، وستحاول أن تسحب ساري معها الى طريق أكثر أمنا تكون فيه أكثر اطمئنانا عليه وعلى أنوثتها وأمومتها، أكثر اطمئنانا على كيانها العائلي حيث الزوجة والأنثى والأم كيان واحد. إنها قلقة على هذا الكيان، ووظيفته والدار التي حصلا عليها، برغم بساطتها وبرغم أنها ليست ملكا لهما، تمثلان الآن في عينيها ضمانة أولى للتقدم نحو حياة أجمل وأرحب. إن الذي لقيته في بيت أهلها من أخيها رسخ فيها الرغبة في تجنب المجازفة بما حصلت عليه في بداية حياتها من حياة مريحة نسبيا إذ لا يوجد ما يضمن أنها يمكنها استعادتها أو تعويضها، فأين تذهب هي وطفلتها إذا ما حدث له مكروه؟ يعرف هو أنها أكثر قلقا منه، يود لو يحتضنها ويغمرها بالقبلات وبالكلمات التي تحب أن تسمعها منه، ولكنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يمنحها ما لا يملك. لقد أصبح يشعر بأن السلطة

تحولت الى كائن خارق يعكر عليه صفو حياته ويحول بينه وبين احتضان طفلته وتقبيلها ومداعبتها، كائن خرافي ينام ليلا بينه وبين زوجته في الفراش. عليه أن يحسم الأمر بينه وبين هذا الشبح الذي يدور في آلاف البيوت الآن يسلب الأمل من قلوب قاطنيها.

-ألن نعود بعد الآن الى بيتنا يا ساري ؟

أراد أن يفتح فمه ليرد ولكنه لم يكن يملك جوابا ولا يريد، من أجل الليلة، أن يجيب بعبارات غير محددة المعنى يقايضها بمتعة ساعات وسط الظلام.

لكمته لكمة خفيفة بجمع يدها على زنده ثم قرصته بلطف وهي تقول:

-كم مرة وعدتني أن تأخذني الى الغابات ولم تفعل... حتى أنك وعدتني بأن نذهب في رحلة الى الجبال... هه...

كانت نبرتها مرتعشة وبادية التصنع، وتدرك أنها بدأت بداية خرقاء. أحس إحساسا موجعا بالشفقة عليها، فلقد أدرك حيرتها ومحاولتها العبثية في أن تبادره بكلمات مؤثرة وذلك لأنها من جانب آخر تعرف أنه صاحب مبادئ من الطراز الجدي والحدي ولا يستطيع أن يكون غير ما هو عليه من الأمانة لمبادئه والصدق مع نفسه والآخرين، وهذا هو ما أعجبها فيه، إعجاب عشق بعد أن كانت نظرتها اليه مجرد استلطاف لظرفه ولكونه صديقا لأخيها ، حدث هذا التحول عندما ذهبت مع أخيها جعفر لمشاهدة مسرحية (النخلة

والجيران) فالتقيا هناك أمام المسرح بساري وأخته التي تقاربها في السن. كان جعفر صديقا لساري منذ الدراسة الابتدائية فتبادلا التحية ووقفوا أربعتهم بعيدا قليلا عن تجمعات الآخرين الذين ينتظرون مثلهم السماح لهم بالدخول ودار الحديث عن المسرحية التي عرفت من كلامه أنها رواية أصلا وقد قرأها. ملأهم بالإثارة وهو يقول أنه جاء ليشاهد المسرحية لأنه أعجب بالرواية ولأنه متشوق ليرى كيف أصبحت بعد أن تحولت الى مسرحية. دهشت لقدرته على الحديث ببساطة عن أمور حسبتها من التعقيد بحيث لا يمكن فهمها وتعلقت به من يومها. غير أنها الآن تأمل أن يجد حلا يبعد به حياتها الغضة الصغيرة عن الضياع. لا تدري كيف ولكنها تريد منه أن يجد صيغة ما... وأيا كانت الصيغة فهي لا تريده أن يذهب الآن.

أما هو الذي عاش ما مضى من حياته على أساس قواعد بسيطة لا تحتمل التأويلات ولا الغموض، لا يوجد لديه شيء اسمه معنى ثان، احتمال آخر، يكره تعدد الاحتمالات، لقد نظم نفسه على أساس من الوضوح المطلق، ولذلك لم تكن لديه القدرة في مراهقته على المطاولة في العلاقات الغرامية والصبر على الإنفعالات الأنثوية التي لا تبدو له فقط زاخرة في التفاهة بل والفتيات انفسهن في غاية الضحالة أيضا، بعكس أقرانه، الذين كانوا يدهشونه بفهمهم لطبيعة الفتيات الأنثوية وقدرتهم على التعامل معها والتكيف مع تقلباتها والحصول منهن على ما يرغبون. أما أمينة فهي مختلفة في

نظره، وقد وجد فيها مشتركات كثيرة معه، هي أيضا لا تحب الغموض الذي يسمح بالمراوغة، مشاعرها واضحة ومستقيمة، وربما كيفت العديد من جوانب شخصيتها لتتوافق مع ميوله الشخصية والنفسية، أو تحكمت بها بحيث لا تتسبب في خلافات تعكر عليهما صفاء حياتهما الزوجية، وإذا ما نازعتها نفسها ومالت بها طبيعتها الى رغبة من الرغبات التي قد تثير خلافا في وجهة النظر بينها وبينه فإنها تستخدم ما يحب الكثيرون تسميته مكرا انثويا لتمهد لرغبتها تلك وتجعلها مقبولة سائغة بنظره، حتى وإن كان يدرك أنها احتالت عليه، ولكنه احتيال ناعم يقع في نفسه موقع الرضا والمتعة. لكن لحظة الصراحة التي ترقى الى المواجهة حلت الآن.

أحس بما يدور في نفسها فقال وهو لا يزال مضطجعا على ظهره:

-أمينة.... كما قلت لأبي. أغراضنا هناك كلها، أثاثنا الذي لا نملك غيره، وأوراقنا الرسمية وأشياؤنا الخصوصية التي نسينا ونحن في عجلتنا أن نجلبها معنا....

قالت بنبرة مشككة:

-ألا يوجد سبب آخر أيضا لذهابك؟

-هل أنا بحاجة الى أن أقول لك؟ طبعا يوجد. هناك شبان... وشابات، أريد أن اطمئن أنهم لا يزالون بمأمن إذ يفترض أن لا أحد يعرفهم غيري. إن تركي لهم الآن بمثابة غدر لهم. بالطبع أنا لا أستطيع ان أرد عنهم الأذى

الآن، ولا أستطيع حتى الإقتراب منهم دون ترتيبات تنظيمية وتأمين سلامة، ولكن إذا توفرت الفرصة سأحاول...

نفضت يديها ببرم:

-لماذا لا تستطيع التوقف عن القلق على الآخرين؟

ابتسم. أراد أن يمنع الحديث من أن يأخذ طابعا أكثر حدة:

-القلق على الآخرين؟ تعبير حلو.

- أنا أعرفك. أنت حتى لا ترمي قنينة فيها دواء أو شراب فاسد في حاوية النفايات قبل أن تسكبه وتغسل القنينة خوفا من أن تقع بيد طفل ويشرب ما فيها، ولا ترمي أمواس الحلاقة كيفما اتفق بل تتخلص منها بطريقة آمنة... طريقة آمنة.... أليس هذا هو ما تقوله دائما؟ نحن بحاجة الى هذه الطريقة الآن...

- مقاربة خاطئة يا أمينة..

صمتت لحظات أدركت خلالها أنها قالت ما لم تكن تجرؤ، أو تحب، أن تقوله من قبل وفكرت أنها ما دامت قد قالت ما قالت فلتكمل وتريح نفسها:

-... طبعا لا حاجة أن أذكرك بأن عملا طارئا لك أو مانعا ما كان يباغتنا فيحرمنا من النزهة التي خططنا لها لشهر أو أكثر، وأن خروجنا دائما كان يقتصر على التجول في السوق والجلوس في كازينو حيث نقابل أحيانا صاحبك ناجي وأخته التي يصحبها خصيصا لتمضي بعض الوقت معي فيما

تخوضان أنتما في نقاشاتكما السياسية، وفي الحقيقة هي أكثر ضجرا مني ومن نوع الفتيات اللواتي ينتظرن الزواج بفارغ الصبر بحيث لا يسليهن شيء...

لكن، بدلا من راحة النفس، داهمها شعور بالذنب جعل صوتها يرتعش والدمع يكاد يطفر من عينيها.

-يا ربي.... لم أكن أعلم أنك كنت مستاءة من حياتنا هناك الى هذا القدر، أم هو المزاج الحالي؟ لا تبالغي يا أمينة. لقد عشنا مع جيران وأصدقاء حياة جميلة بسيطة تعكرها مصاعب ليس لنا ولا لهم ذنب فيها..

وبعد أن نظر الى السقف متأملا واصل كلامه:

-هل تصدقين يا أمينة أن البعثيين هم من دفعني الى الانتماء الى الحزب الشيوعي؟ لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشرة حين أمسكوا بي وحجزوني شهرين في معتقل مديرية الأمن العامة بعد أن راقبوني لأن أحد رجال الأمن شاهدني أحمل كتابا عنوانه (الصحافة العراقية) دفعني الفضول لقراءته لا أكثر ولا أتذكر كيف حصلت عليه. لم أكن أعرف ما هي الشيوعية وما هو الحزب الشيوعي وما علاقة هذا الكتاب بأسئلتهم الكثيرة التي دوخوني بها والتي لم أكن أملك جوابا عليها، ولكني بالنتيجة خرجت من المعتقل وأنا أملك أجوبة على أسئلة كثيرة أخرى أكثر أهمية في حياتي راودتني من قبل.... حدث هذا لآلاف غيري.... إنهم يُدخلون الى السجن بريئا ليس لديه ما يُخشى منه ويخرج من السجن وهو جدير بأن يخشوه.

صمت وأخذ يتغطى باللحاف جيدا. أما هي فلم تقل شيئا إذ قالت كل ما تريده، وعبرت عن كل ما يهمها، وكانت هي أيضا تنظر الى السقف، الى ملاطه الساقط بفعل الرطوبة من أماكن فانكشف طابوقه المعقود، والى عوارضه الحديدية التي نالها الصدأ عند الأطراف. هيمن سكون الخارج على الداخل وليس من حركة سوى اهتزازات تكاد لا ترى لأغصان شجرة الجيران على خلفية مصباح عمود الكهرباء الذي يرسل عبر النافذة مربعا واهن الضوء فيستقر بنصف على الجدار حائل البياض وبالنصف الآخر على السقف فيرقب ساري لوحته المرتجفة. بعد قليل يعتدل جالسا في الفراش فتنظر اليه أمينة متسائلة وهي التي تترقب أن يلتفت اليها في أية لحظة ويحتضنها ويقضيان ليلتهما هذه متعانقين. قال دون أن يلتفت نحوها:

-أتسمعين شيئا... أظن أني سمعت صوت حمامة.

أجابت بعد أن عدلت غطاء طيبة وانقلبت نحوه على جنبها:

-لم أسمع.... لا أظن أن الحمام في الليل يصدر صوتا.

-ربما أثارها شيء... لقد سمعت خفق أجنحة وصوت كأنه صادر من حنجرة حمامة.... هكذا...قررrr.

ابتسمت وقالت:

-حسن... هي الآن على غصن من أغصان الشجرة وبحاجة الى النوم. ألا ننام نحن أيضا؟

نظر اليها وقال باهتمام وصوت خفيض:

-أتعرفين يا أمينة كم أحب هديل الحمام البري؟ لقد سحرني منذ طفولتي... مرة يخيل إلي أنه نداء، ومرة يخيل إلي أنه بكاء، ومرة يخيل إلي أنه رثاء...أكاد أفهم ما يقول وأترجمه الى كلمات...

-حسن.... أنا أهدل بكل قلبي فترجم ما أقول!

عاد الى اضطجاعه وجعل يده التي ليست من جهتها تحت رأسه وقال سارحا في ذكرياته:

-أذكر أني كنت طفلا في السادسة حين استدرجني هديل الحمام من أمام بيتنا السابق حيث كنا نسكن الى أشجار سامقة تكثر عليها الحمائم وتهدل من الصباح الباكر. كان قرب تلك الأشجار إسطبل لخيالة الجيش وقد هربت منه ثلاثة أحصنة هائجة كادت أن تدوسني بحوافرها لولا أن احتميت بشجرة من تلك الأشجار وجاءت أمي بعدها تبحث عني وهي تبكي وتسأل المارة حتى دلها سائس الخيل علي....

مدت يدها لتعبث بشعر صدره:

-لقد كنت طفلا شقيا إذن....

ضحك بصوت منخفض ضحكة مبتورة:

-كدت أن أتسلق مرة شجرة عالية لأني أسمع هديل حمامة ولا أراها وكنت قد صعدت قسما من جذعها حين رآني أبي وصاح بي فقفزت وتسببت

القفزة بأن أمشي بعرج خفيف الى الآن... لا أعرف لماذا إذ لم يحدث كسر ولا رض...

-أنت تكشف لي معلومات عن حياتك الماضية لم أكن أعرفها...

-ولم أقل لك أيضا أني أحب، هناك في المعبر، أن أسلك حين أذهب الى المقر، الشارع الذي يحاذي الأرض غير المسكونة والقريبة من النهر لأن فيها أجمات من الأشجار تكثر فيها الطيور... خصوصا الحمام، وأطرب وأنا أسير لهديله.

صمت حتى ظنت أنه لن يتكلم بعد ولكنه واصل كلامه في اندفاع طفولي مفاجئ هامس:

-حكت لي أمي منذ زمن طويل أن حمامتين شقيقتين كانتا تطيران معا في رحلة الصيف الموسمية وعند عبورهما فوق مفازة قفر استبد العطش بالأخت الصغيرة فسقطت على الأرض من ارتفاع شاهق. تتبعت الكبيرة سقوطها وعثرت عليها. أخذت تبكي ودموعها تتساقط على منقار أختها الصغرى، ولكن الدموع لا تحيي الموتى كما تعلمين، حتى لو كانوا أعزاء، وهكذا الى اليوم يهدل الحمام هديله الذي نسمعه حزنا على شقيقة صغرى ماتت عطشا في الطريق الى الديار الصيفية....

ران الصمت في الغرفة المشبعة برائحة الرطوبة. كانت الحكاية مؤثرة على أمينة بحيث تطلب منها مجرد التكلم أن تأخذ نفسا عميقا من الهواء:

-قصة حلوة... لكن...

وتابعت وهي تفرك حافة اللحاف الناعمة بين سبابتها والابهام:

-أليس غريبا أنك تؤمن بهذه الحكايات الخرافية؟ هذا يخالف ما عرفته عنك من ميل للتفكير العلمي.. أم لأنها تتعلق بالحمام الذي تحبه؟

-إذا تعلق الأمر بما يحب الإنسان أو يكره فإنه يميل الى نسج الحكايات والاستماع اليها.. أنا من جانبي لا مانع عندي من الاستماع الى الحكايات الخرافية وتذوقها فيما يتعلق بالأشياء الجميلة والبريئة... ولكني لا أشارك في ابتكارها...

وابتسم وهو يتأمل وجه أمينة التي سألته:

-حسن.. لماذا لم أشاهد في بيتكم هنا قفصا للحمام؟ ولا حمامة...

-أنتِ الآن وقعت على الفرق بين حبي للحمام وحب غيري له. أنا أحب الحمام البري لهديله وهذا النوع لا يمكن تربيته كما أعتقد. لا أعرف... لم أحاول... ولم أسأل.

-لو كنت أخذتنا للغابات لكنت استمعت قدر ما تريد الى الهديل.. هناك يوجد الكثير من الحمام بالتأكيد.

-من يدري؟ الحياة فيها مفاجآت كثيرة ولعل الظروف تتحسن فنعود. فلنكتف الآن بتفسير الهديل....

ومال عليها وهي تقول له:

-لقد قلت عن هديلها ما يكفي فماذا عن هديلي؟

-الآن أقول لك بماذا تهدلين؟

ليلتها... في الظلمة الرطبة الباردة، قبلها كثيرا ورجاها أن لا تظن أنه متبلد المشاعر أو أنه لا يحبها بل أن حبه لها واعتزازه بها سبب من أسباب عودته الى هناك فهو لا يستطيع أن يتخيل رجال الأمن يعبثون بأشيائهما، بخصوصياتهما وبذكرياتهما. لقد قرر أنهم إذا دخلوا البيت لن يجدوا سوى بيت فارغ، لن يجدوا أمام وجوههم سوى الجدران.. هذا ما قاله وكرره بصيغ مختلفة بين الحين والحين.

في الصباح الباكر، وهو يرتدي ملابسه، حرص على أن لا يصدر صوتا ييقظها وطيبة، لم تستيقظ أمينة وربما استيقظت ولكنها لم ترد أن يعرف أنها مستيقظة فبقيت ساكنة مغمضة العينين لكي تتجنب الحرج، لقد رجته بالأمس أن يبقى ولكنه لم يقبل، لقد أغمضت عينيها على رغبة جياشة بالقفز من الفراش نحوه والتشبث به وتمنعه من الخروج بكل طريقة.

غادر الى بيت خاله الواقع في حي قريب ليقضي يومه هناك. لم ينس عند مروره أمام شجرة الجيران أن يلقي نظرة سريعة على أغصانها لعله يرى الحمامة التي لم يفارق هديلها خياله وهو نائم.

٤

تستدير الحافلة حول الساحة نازلة الشارع الذي يحاذي مجمع دور معمل الأقمشة فيفز من نومه القلق. ها هو الآن يدخل الوادي حيث محطة (باب المعبر). بعد قليل ينزل عند جسر لسكة القطار نصب طرفاه على مرتفعين يقولون أنهما كانا يشكلان قديما مدخل سهل منبسط قامت عليه المدينة أو كما يقول كبار السن أن اسمه "باب المر" فيما يقول آخرون أن اسمه القديم الحقيقي "بابل مر" وليس "باب المر" لأنه كان على مشارف مملكة بابل في مرحلة من مراحلها يمر الآتي من الشمال اليها عبره. لم يحب ساري في حياته أي شيء فيه ألغاز وأحجية كهذه ناهيك عن الطبيعة الخرافية لهذه المعلومة، ولكنه الآن، في تلك اللحظات، بينه وبين نفسه، وهو ينظر الى ذلك الممر، في غبش أزرق قاتم، شفاف مع ذلك، يحدث نفسه أن هذه الأرض، أرض مملكة بابل، لا تطلع تربتها إلا الألم ومن يعيش عليها لا يمكن أن يرى ويعيش إلا ما هو مؤلم، إما ظالم أو مظلوم، ولا ثالث لهما.

تحين منه التفاتة الى حيث يقع بيت صديقه يونس. الظلمة تتبدد وتنحل في الغبش... أغصان شجرة العنب المتشابكة على القمرية الخشبية تحجز النظر عن واجهة البيت و لا يبين من خلالها سوى التماع ضوء المصباح الأصفر.

أين هو يونس الآن يا ترى؟ كان آخر لقاء له معه قبل موجة الاعتقالات بإسبوع.

لم يخش عليه وعلى الآخرين من الانكشاف. هذا التنظيم الفردي الذي لا يعرف أفراده بعضهم بعضا ولا يجتمعون سويا ولا يعرفهم جميعا أحد أقامه ساري بعد أن إقترح على الحزب ذلك الإقتراح بأن يقيم تنظيما سريا من الكسب الجديد، وكان قد هيأ عددا من الأصدقاء من بينهم يونس العامل في معمل الأقمشة وآخرون، فلما لم تأته موافقة من الحزب أبقى على سرية علاقاته هذه خوفا من أن يتعرض هؤلاء الأصدقاء الى الاعتقال.

ارتبط يونس بعلاقة مع فتاة جذبه اليها أول الأمر جمالها وهوايتها قراءة القصص والمجلات الفنية، وبرغم كونها ذات سمعة سيئة، تزوجها بدافع رومانسي هو، كما رجح ساري ، تحقيق نجاح في الحياة بانتشال فتاة حلوة من واقعها القبيح وإصلاحها لتكون فتاة واعية رفيقة له في مستقبل رسم له صورة نضالية زاهية من بنات خياله. الواقع أن ساري يعرف أن يونس نفسه، وهو شاب في مقتبل العمر، بحاجة الى أن يتعلم الكثير عن تقويم الناس، وأن يقوم أولا بتشذيب نزعته الثورية المندفعة اندفاعا فيه الكثير من المزاجية، ولذلك حين أخبره قبل زواجه بأمر علاقته بالفتاة واستعلم عن الفتاة أدرك أن يونس طفر طفرة تُخشى عواقبها. شيء يشبه مزج الرومانسية بالحسية الفوارة دون ضبط المقادير وفي ظروف غير مناسبة. هاتان إذا اجتمعتا

في شخص واحد قد تكونان مزيجا طبيعيا من إبداع الخالق، حب الحياة والتفاني في سبيلها، ولكنه غير متأكد مما سيؤدي اليه هذا في حالة يونس وحبيبته. كان أول تأمين لتجنب الضرر اتخذه ساري هو صد جميع محاولات يونس لإدخالها في التنظيم وأجابه في المرة الأخيرة جوابا غازل فيه غرور الشاب وأشبع رغبته في سماح المديح:

_لم يحن الوقت بعد. إبذل مزيدا من الجهود لتثقيفها. أنت الشخص المناسب لهكذا دور، وبعد ذلك نناقش الأمر.

اقتنع يونس وأبعد ساري ، ولو مؤقتا، خطر دخول فتاة نزقة كـ (واصفة) الى التنظيم الأكثر حساسية، التنظيم النسوي الذي كانت هي أكثر حماسا من زوجها للدخول فيه ربما لتشبع فضولها في التعرف على فتيات يعملن في تنظيمات سياسية سرية، تريد أن تعرف كيف يمكن أن يكون هذا النوع من النساء، وربما أيضا لتضيف سببا يجعلها تشعر بأهميتها مضافا الى جمالها ولباقتها، ولو كانت توجد وسيلة ليعرف ساري أنها ترى الإنتماء ليس مجرد سبب مضاف الى الجمال واللباقة بل أكثر أهمية منهما لاستطاع أن يرى بصيص أمل في أنها يمكن أن تصبح يوما مختلفة، ومفيدة، ولكن الأمر يحتاج الى الكثير من الجهد والصبر والى تفكيك الشخصية وإعادة تركيبها بشكل صحيح، للوصول الى اليوم الذي يكون فيه جمالها عامل كسب إنساني وليس وسيلة إغراء، ويتحول نزقها المغوي الى جرأة ثورية. رأى ساري أن هذا شيء من

قبيل الأوهام في مجتمع لا يستطيع أي حزب فيه الإعتماد في الكسب إلا على الأشخاص المتوفرين على شروط العمل السياسي والاستعداد الواعي للمخاطرة أو متوفرين على الإمكانات الأولية في الأقل. لكن لم يبد على واصفة خلال الأشهر الماضية أنها من معدن قابل لإعادة السبك. نفس أسلوبها في الكلام وابتسامتها التي قد يرافقها غمز خفيف بالعين، وحركاتها المتفجرة أنوثة وإغراء، لم يرتح ولا مرة في زياراته ليونس فقد كانت تجلس بطريقة لا يستسيغها هو حين تضع ساقا على ساق فينكشف جزء من فخذها أو تتحدث وتضحك بطريقة رافعة للكلفة دون مبرر، وقد لاحظها مرات بحضوره وحضور زوجها وشقيقه تنحني انحناءة مبالغ فيها بحجة رفع صينية أقداح الشاي مثلا فيبدو ثدييها من تقويرة الثوب الواسعة، أو بالعكس تنحني الى الجهة الأخرى لأمر ما فتبرز تقاطيع مؤخرتها وحدود لباسها الداخلي وتتعمد أن تبقى هكذا أطول من اللازم.

أكثر ما في قصة يونس وواصفة إزعاجا أنها كانت على علاقة سابقة مع شاب من حزب البعث يدعى شميل، ولأن شميل هذا يعرف ميول يونس الفكرية، أو يشتبه في أن له ميولا ما دام يحب القراءة وليس في حزبه، صار يشيع تفاصيل عن علاقته بواصفة، علاقة بالغة الحميمية الى درجة أنه يعرف عدد الشامات على جسدها وأين توجد في أماكن لا يعرفها إلا من رآها عارية تماما. كادت هذه التفاصيل أن تدفع يونس الى الوقوع في فخ الاصطدام

بشميل ولكن ساري منعه قائلا له أنه إذا أظهر لشميل مجرد الاهتمام بما يقوله فسيجعله يزيد من سرد القصص.

بعد نصيحته هذه بيومين كان جالسا في حديقة المقر مع الحاج عبد العزيز، الحديقة التي يحب الجلوس فيها مع من يصادف وجوده هناك ويتنعم ببرودتها حتى في الأيام التي يبدو أن حرارتها لا تخف إلا قليلا حتى ولو كان الوقت عصرا فيعجب وهو يأتي يقطر عرقا من الشارع ويجتاز الممر بين الغرف لينزل الدرجات الى الحديقة فكأنه دخل عالما آخر على هيئة خندق واسع في الأرض بمستوى القبو ترتفع من حوله جدران عالية من حجر يغطيها متسلق النبات ويكسو أرضها الحشيش ناعم الأوراق وعلى محيطها تدور ساقية تزود بالماء أشجار خوخ ومشمش وبرتقال.

جاء العجوز عبد العزيز وتوجه الى حيث يجلس ساري مباشرة وجلس على الكرسي المقابل. كان في ذلك اليوم واجب خفارته في المقر. "عمو" عبد العزيز كما ينادونه في الحزب، أو الحاج عبد العزيز كما ينادونه معارفه وجيرانه، الذي حج الى مكة منذ سنوات، عضو قديم في التنظيم وعاصر مراحله كلها، وانتكاساته كلها، غير أنه برغم تأريخه الحزبي العريق لم يرتق في سلم المسؤوليات لأنه لا يعرف القراءة والكتابة وبقي في أدنى الخلايا راضيا عن طيب خاطر باستقبال المنتمين الجدد يعلمهم الأوليات ثم يصعدون الى مستويات أعلى وهو باق في مكانه. كان عندما أعدم أول قائد للحزب جنديا

في الإنضباط العسكري وضمن السرية التي جلبوها تحسبا لتطورات غير متوقعة وشكلت بجنودها المدججين بالسلاح صفين يمتدان من قاعات السجن الى ساحة الإعدام يمر المحكوم بينهما:

-كنت واقفا ضمن الصف في منتصف المسافة. عندما أصبح قريبا نظر إلي بعينيه الحادتين اللتين لم يؤثر في نظرتهما الثاقبة تعذيب أو تجويع... آه لو كنت يا بني حاضرا لأدركت ما يعجز لساني عن وصفه لك. نظر إلي كما قلت لك فعرفني ويبدو أنه لاحظ علي من الانفعال ما خشي أن يدفعني الى حماقة فضح انتمائي بالقيام بمحاولة تخليصه أو ما شابه فعض شفته السفلى يحذرني من القيام بأي شيء....

كان (ميمون ناصر) كاتب قصص الأطفال والعضو مع ساري في المكتب الصحفي يتمشى في الحديقة ذهابا وإيابا وقد بدا عليه أنه يفكر في قصة جديدة أو مقال لملف قصص الأطفال. عندما شرع عمو عبد العزيز بحديثه الى ساري توقف أمامهما على مبعدة ينظر مبتسما وشفتاه تتحركان. قاطع عمو عبد العزيز قائلا:

-أظنك حكيت لي مرة أنك كنت الى مكان إعدامه أقرب مما تصف الآن وأنه أعدم بالرصاص...

عمو عبد العزيز الذي اعتاد على مزاح ميمون ونكاته ظل مطرقا قليلا ثم نظر جانبيا اليه وقد أضاءت ابتسامته تجاعيد وجهه، ورد بهدوء وترو:

-انشغل أنت بقصص الزعاطيط ولا شأن لك بقصص الكبار، ثم أني لم أقل الآن كيف أعدم...

ضحك ميمون وواصل تمشيه لكن عمو عبد العزيز لم يتركه في حاله فنادى وراءه:

-أدلك على قصة للأطفال ستكون أنت أول كاتب لها ... إكتب قصة عن أبي بريص.

قهقه ميمون دون أن يلتفت.

ثم نظر عمو عبد العزيز ناحية ناجي، الذي كان قادما بصينية عليها إبريق الشاي وبضعة أقداح شاي فيها سكر، وهز سبابة يده اليمنى قائلا:

-وأنت فتى الكلية، عالم الإقتصاد... إياك أن تنفخ في فتحة الإبريق وتصدر ذلك الصوت المزعج أو ترفع يدك عاليا وأنت تصب الشاي فيصدر صوتا كحمار يتبول....

تسمر ناجي في منتصف الطريق وهو يكشر ويحاول كتم ضحكة تكاد تفلت من فمه:

-هل أرجع؟

أشار له عمو عبد العزيز بأن يأتي اليه:

-سأراقبك جيدا وأنت تصب الشاي، ولكن إحذر!

توسم ساري في عمو عبد العزيز رجلا، علاوة على كونه يفيض بساطة وطيبة، حاضر البديهية قوي الشخصية. بعد أن أنهى قصته وشربا الشاي سأله:

-عمو عبد العزيز... هل تعرف في حيكم شاباً اسمه شميل؟

-شميل؟

-شميل... لا أعرف اسم أبيه.

-لا حاجة.... لا يوجد في محلتنا غيره بهذا الإسم. إنه إبن عون الأعضب. كيف عرفته؟ لا تقل لي أن لديك نية لتجعله صديقا للحزب. إنه شاب فاسد...

هز ساري يده بالنفي وهو يبتسم ابتسامة خجول، وحكى له ما يقوم به شميل من مضايقات، ورجاه بوصفه كبير السن ووجها من وجوه المحلة ويعرف أهل شميل، أن يجد حجة أو مبررا ما للتدخل وجعل شميل يكف عن إزعاج يونس وتشويه سمعة زوجته.

ربما نجح العجوز عبد العزيز في مهمته لكن يونس لم ينجح في تجاوز ما كان يجب أن يتوقعه قبل الزواج. كان يعرف أن واصفة كان لها علاقات بشبان عديدين، وطبعا يعرف أن من أقرب الإحتمالات الى الواقع هو أن تكون العلاقة الجنسية جزءً من هذه العلاقات، ولكن أنْ يضعه أحدهم، وبهذا التفصيل المستفز، أمام حقيقة كان يجب تجاهلها ويعدها مجرد احتمال

يمكن اهماله، فهذا شيء آخر، شيء آخر قلب كيانه وكيان علاقتهما. هي أيضا عرفت هذه التطورات، أو شيئا عنها، عن طريق ما تناقلته النساء، وبدأت ردود الأفعال المتبادلة تزداد وخزا وإنْ كان بشكل غير مباشر، وأصبحت من بين الأكثر وخزا لها نظراته المتفحصة لجسدها وهي تتحرك في البيت، والمتتبعة لنظراتها الى الآخرين وكلماتها، صار كل شيء يصدر عنها مثار ريبة وشك بأنها ربما لا تزال لديها علاقات، وفي الفراش الذي كانا من قبل يطلقان فيه لشهوتهما العنان أخذت تبدو على يونس علامات الضيق حين تبادر ككل مرة فتتعرى تماما أمامه، على ضوء المصباح، فيرى الشامات التي يعرفها شميل، واحدة واحدة، ومستعد لأن يواجهه بها، ومن يدري، ربما يتجاسر ويمسك زوجته أمامه ويؤشر له بسبابته عليها هنا وهنا وهناك، لم تكن الرعدة أول الأمر واضحة، ولكنها أخذت تزداد وضوحا مع نهي قهري:

_لا تخلعي شيئا!

حالت الظروف الأخيرة بين ساري وبين لقاء يونس أو سماع أخبار عنه.

كان في إحدى إجازاته قد صارح والده بخصوص يونس. لم تكن مشاكل العمل السياسي مع الناس غريبة على والده فقد كان عضوا في الحزب الديمقراطي وسجينا سياسيا سابقا. ضحك الرجل وكأن ساري أعاد على أسماعه قصة سمعها من قبل أو عاشها عن قرب. كان جالسا على الأرض

كعادته، ولم يجب رأسا بل ظل ساهما يستذكر أشياء، فتح فمه يهم بالكلام ورفع رأسه ينظر الى ساري بتمعن:

-... أنظر! دعك من التفاهات التي تعلمتموها من الكتب أو علمكم إياها أحدهم. كل واحد من بني آدم يولد وفيه طبائع.. ميول... نزعات.. لا تغيرها ثقافة ولا تربية ولا تعليم. لن يتحول الحسي في يوم من الأيام الى زاهد، ولا الميال للعنف الى مسالم، ومن نصطلح على تسميته فاسدا يبقى فاسدا، ولكن الثقافة والتربية تشذبان هذه الميول وتسهمان في قمعها أو جعلها تمارس في توقيتات ومواقع أقل ضررا، وربما إذا توفرت ظروف مناسبة، توظف في مجالات تكون فيها نافعة بطريقة من الطرق. قد تخدم الميال الى العنف ظروفُه فينتمي الى حزب ثوري ويجد في هذا الإنتماء إشباعا لحبه للعنف في مواجهات سياسية مقيدة ومقننة بأوامر الحزب، وقد يصبح الحسي فنانا فيصب ميله هذا في صالح أعمال فنية جمالية....

ثم سكت وظل قليلا يمسد شاربيه وهو مطرق:

_أما المرأة....أية امرأة... فقضيتها مختلفة. لنكن صريحين... العمل السياسي كالعمل الفني من هذه الناحية، إذا أردت أن تنتمي اليه امرأة فلا بد أن تكون جريئة ومنفتحة، ومع الجرأة والانفتاح لا بد أن تكون قد حدثت أشياء.... وتحدث. ما عدا هذا كله كذب وخيال رومانسي.

ثم سكت للمرة الثانية لحظات وقال:

_ .... صاحبك... شاب أراد أن يجعل من فتاة إنجازا شخصيا له للنجاح بمقاييس غير واقعية، وهي أرادت لعلاقتها به أن تكون أكثر جدوى لها دون أن يبدو عليها ظاهريا أنها تبذل جهدا لتتغير بما يناسب هذا الدور.

ورفع رأسه لينظر الى ساري :

_ربما كان سينجح الأمر إذا حالفهما الحظ، ولكن الظروف التي تخلقها سلطة مثل التي نعيش تحتها لن تمنحهما الفرصة ليعيدا ترتيب الحياة الشخصية لكل منهما باتجاه حياة شخصية مشتركة فيها لكليهما ولو بعض التجانس بين السلوك والمبادئ... لن يحدث هذا. كن متأكدا، ولذلك أظنها ستكون من دون أن تدرك مصدر خطر على صاحبك الحالم.

٥

تقترب الحافلة من جسر السكة ويطلب من السائق التوقف قبل أن تعبر الحافلة من تحته. ينزل ويتوجه عابرا الشارع ليصعد المنحدر ويسير بمحاذاة السكة مسافة ثم يتجه يساراً نحو الدار التي يشغلها في مجمع دور العمل الشعبي على أرض مرتفعة قرب قسم صيانة القاطرات. لا يصادف أحدا في تلك الساعة المبكرة من الصباح غير عبد الباقي يسير من الجهة الأخرى للمجمع حاملا أكياس طحين فارغة مطوية بيده ومتوجها نحو مرائب السكك حيث تركن على خطوط جانبية عربات المسافرين وعربات الشحن غير العاملة. يعرفه من بعيد ويعرف الى أين يقصد، يراه ينحدر باتجاه عربات الشحن بقامته القصيرة الممتلئة ورأسه المطأطأ دوما تعتلي صلعته طاقية صغيرة. يعرف أن عبد الباقي، عامل المقص الذي يحول مسارات الخطوط للقاطرات، ذاهب كعادته، وهو يختار الوقت المبكر في يوم العطلة التي يندر أن يصادف فيه مهندسا أو مسؤولا، ليبحث في ممرات عربات المسافرين، بين مقاعدها وتحتها، لعله يعثر على شيء ثمين نسيه أحد المسافرين أو ضاع منه، ثم يملأ كيسا أو كيسين بفضلات الماشية التي تشكل طبقة جافة على أرضية عربات نقل الحيوانات فيكسرها قطعا ليسهل وضعها في الكيس ويبيعها

للمشتغلين بالأسمدة فيستعين بثمنها على قضاء بعض حاجات عائلته الفقيرة.

يدخل ساري الشارع المقفر الساكن في برد الفجر ويفتح باب بيته الحديدي المكون من غرفتين أمامهما التواليت والحمام والمطبخ وفي الوسط باحة صغيرة مكشوفة. ينسل داخلا ثم يغلق الباب خلفه بهدوء. ما أن يصبح داخل الباحة الصغيرة حتى يلتفت الى حيث شجيرة ورد جوري أحمر وحيدة مزروعة أمام باب الحمام في حيز مسيج بالطابوق ومليء بالتراب الخصب لا تتجاوز مساحته نصف متر. لم يزرعها هو بل وجدها هناك حين استلم الدار واستمر بالعناية بها وسقيها، وهو متأكد من أن الذي سيسكن الدار من بعده سيواصل هو أيضا سقيها والعناية بها، والسؤال هو متى يأتي الساقي الآخر؟ ربما تبقى الدار شاغرة فترة طويلة وتتعاقب الأيام ويثبت الذبول، وتتحول الأغصان الى حطب بعد أن ينفرط النسغ ويتلاشى الاخضرار في تربة متشققة . يملأ الإبريق بالماء ويأخذ يرش منه على أغصانها واضعا راحة يده تحت الماء المنسكب ليتسرب من بين أصابعه على الأوراق برقة فلا يؤذي الوردة الجورية التي كبرت في غيابه وأفردت بتلاتها التي بدت عليها، بعد أيام من الحرمان، وعلى الجوريات الصغيرات اللواتي يتهيأن للتفتح، أعراض الذبول. يفكر: "هذا الورد الجوري ذبوله أسود" وهو يمسك بتلةً ما بين إبهامه وسبابته ويفركها برفق.

اعتاد زملاؤه في قسم القاطرات على أن يلقبوه بالبستاني لأنه يحب سقي الزرع حتى في المعمل حيث زرع خلف ورشته صفاً من شتلات الورود والآس. يكون أحيانا لدى متولي، اللحّام المصري الذي في الورشة المجاورة، مزاج لسقيها ولكنه كلما كان يخرج لسقيها تحت الشمس صيفا ويرش الممشى الإسفلتي، يعود وهو يهز رأسه جاحظ العينين والعرق يقطر من وجهه:

_ أيّوه يا جدع.... دنتو عندكو حر قوي هنا في العراق.

_ وإذا نقلوك الى البصرة؟

_يا خبر إسوِد... ده أنا أهج.... أرجع بلدي.

سأله يوما:

_هل تعرف إمام؟

_إمام؟ إمام مين؟

_إمام... الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم!

_لأه.... منين دول؟

_إنت مصري وخريج معهد عال... ولا تعرف إمام ونجم؟

_لا والله معرفهمش.... ماهم؟

_ولم تشاهد فيلم العصفور؟

_لا والله.... عصفور إيه... إنته ولا مؤاخذة بتتكلم عن إيه يا أستاذ؟

فسرد له قصة الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وكاسيتات أغانيهما التي توزع سرا حتى في العراق ودورهما في الإضرابات والإعتصامات وقرأ له شيئا من قصيدة (يمه مصر يا بهية يم طرحه وجلابيه) وظل متولي طوال حديث ساري محدقا فيه فاغرا فمه، مغمضا عينا وفاتحا عينا، خلف زجاجتي نظارته السميكتين على عادته حين يكون مصغيا بانتباه الى حديث أحدهم.

_آ والله... ده كلام حلو قوي. إنته عرفت كل ده إزاي؟

التفت ساري فرأى مهندس قسم القاطرات قادما وبيده أوراق العمل فقال لمتولي:

_إذهب الآن وسنتحدث كثيرا فيما بعد...

ثم أضاف فيما كان متولي يستدير ليذهب الى ورشته:

_ يمكنك أن تكون ضيفنا اليوم على العشاء في البيت. أنا وزوجتي ليس معنا سوى طفلتنا وسيسعدنا أن تتعشى وتدردش معنا.

فالتفت نحوه متولي بابتسامة امتنان. في ورشة اللحام سأله زميله جمعة، وهو مصري أيضا جاء معه من بغداد بكتاب تعيين واحد منذ سنتين:

_قالك إيه الجدع ده. شايفك مبسوط يعني.

_عارف يا جمعة... أنا مصري ومش عارف اللي يعرفه أستاذ ساري ؟

_إيه اللي عارفه؟

_إنته عمرك سمعت في مصر بالشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم؟

رفع جمعة وجهه وقلب مقلتيه باتجاه سقف الورشة المكون من الصفيح محاولا التذكر ثم نظر الى متولي فاتحا عينيه على سعتهما وقال بصوت خفيض:

-آه... سمعت...دول شيوعيين ولاد كلب.

قال متولي بصوت خفيض أيضا:

-شيوعيين إيه.... أحمد فؤاد نجم بيكتب شعر والشيخ إمام بيلحنه ويغنيه... والله أغاني حلوة يا جمعة.

-زي ما بقولك... شيوعيين. هيهْ وبعدين؟

أجاب متولي بصوت أقرب للهمس هذه المرة:

-عزمني عالعشا اليوم عشان يحكيلي أكتر عنهم.

تهلل وجه جمعة وأطلت من عينيه نظرة ثعلبية:

-إبسط يا عم... ده مراته حلوه قوي!

-إيه اللي إبسط ومراته... إنته بتقول إيه؟

-هوه مش حكالك عن اللي إسمه أحمد واللي إسمه إمام؟

-أيوه.

قلب جمعة راحتي يديه الى الأعلى ليدلل على بساطة الإستنتاج:

-دول شيوعيين.

قال متولي وقد بدت عليه بوادر التذمر:

-يعني إيه؟

-يعني هو شيوعي.

سأل متولي، برغم ملله من هذا الحوار، راغبا في أن يعرف بالضبط قصد جمعة:

-ثم ماذا؟

وكزه جمعة في كتفه بجمع يده:

-إنته بتستعبط ولّا إنته عبيط بصحيح؟ إسأل أي واحد في العراق يقولك. الشيوعيين همه كده...

وحرك يده حركة داعرة وهو يضيف:

-نسوانهم منفتحات عالآخر وآخر انبساط.

-دا انته عقلك متركب بالمشقلب... أنا اللي راغب يحكي لي....

قاطعه جمعة محركا يده بإشارة الجزم:

-وما له؟ مفيش أحلى من الثقافة ومعاها شوية من اللي بالي بالك... بص... هو شافك مصري ودخلَّك من الباب ده.. نجم وشيخ وبتاع عشان يعني يجرجرك...إفهم بقى!

ثم ضربه ضربة لطيفة بقبضتيه على صدره وقال مكشرا:

-عارف يا واد يا متولي... هي تستاهل واحد يبقى شيوعي عشانها.

وظل مكشرا حتى عندما دخل المهندس صائب وسلّم متولي أوامر عمل، ولما أراد الإنصراف خاطب جمعة قائلا:

-أحدهم قال لي بأنك بالأمس قضيت وقتا، إضافة الى فترة الإستراحة، هناك فوق تتصيد صغار الحمام من أعشاشها...

وأشار بيده الى عوارض سقيفة مأوى القاطرات الشاهقة وأضاف..

- انتبه وإلا سقطت، إذا لم يكن من العوارض، فمن تقييم العلاوة.

-حاضر يا بيه!

وأسرع ليشعل النار في الكور يهيئه للعمل وبعد أن أشعلها عاد الى متولي الذي كان يعد قطع الحديد اللازمة للعمل يخرجها من كومة القضبان والصفائح تحت منضدة اللحام الحديدية الواسعة:

- حا قول لجماعتنا محمد وعبد الله وكرم عشان يجوا معانا.

أجفل متولي وأسقط قضيبا من يده على المنضدة:

-إنت مجنون؟ ده مش ممكن. هوه عزمني أنا وحدي.

-طيب أروح أنا معاك. ورحمة أمي أقوللهم إذا ما وافقتش.

-أما إنت واحد رذل....

ثم هز في وجهه سبابته يحذره:

-أنا حاخذك معايا بس عشان تتأكد إنو مفيش حاجة من اللي بتهلوس فيها. بس على شرط تعمل زي ما بعمل وتحفظ أدبك...

ثم نبذ بأصابعه باتجاه وجه جمعة:

-ولا أقولك... أسكت وما تتكلمش خالص.

في دار الإستراحة حيث يقيم العمال المصريون والعزاب العراقيون المنقولون من محافظات أخرى للعمل هنا كان جمعة تحت رقابة صارمة من متولي طيلة عصر ذلك اليوم لكي يتدارك أن تغلبه طبيعته ويقول شيئا لجماعتهما خارجا عن اللزوم عن "عزومة" اليوم التي يتصرف جمعة وكأنها من أجله حتى أنه أصر على متولي أن يرتدي أحسن ملابسه ويحلق لحيته ويتعطر فأطاعه هذا على مضض.

فوجئ ساري برؤية جمعة الذي لم يكن يتوقع مجيئه مع متولي، ولأنه يعرفه جيدا حزر أنه فرض نفسه على متولي بشكل ما. رحب بهما ترحيبا حارا ولكنه نظر الى متولي نظرة عتاب خاطفة، ولم يتأخر كثيرا بعد أن إستقر بهم المقام في غرفة الجلوس في أن يخمن الفحوى العام لما جرى بينهما من حديث، أو ما يمكن أن يقوله جمعة، من مظهرهما المتأنق أكثر مما تقضي به الزيارات عادة بين الزملاء في مكان عمل واحد ومجمع سكني واحد، ومن ارتباك متولي وجلسة جمعة التي تكاد تكون متوفزة وهو يتابع ويرمق من طرف خفي زوجة ساري التي ما لبثت أن انصرفت الى غرفة النوم لتجلس عند طفلتها التي في المهد وتداعبها بعد أن رحبت بهما وقدمت لهما كأسي الشربت وجلست معهم قليلا. كانت الزيارة محرجة الجو، جعلت متولي بعد ذلك كلما تلاقت عيناه بعيني ساري يطرق خجلا لذكراها، خيبة أمل لمتولي لأن جمعة أفسدها عليه وخيبة أمل لجمعة لأن ما راودته به نفسه تبين له أنه غير صحيح، أو كما حاول

إقناع نفسه فيما بعد بأن ما أمله لم يتحقق بسبب حضوره المفاجئ دون اتفاق، وفشلاً بالنسبة الى ساري الذي لم يرتح لحضور جمعة وبالتالي لم يسرد كل ما لديه عن الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وكانت الجلسة عبارة عن أحاديث مرتبكة لقتل الوقت.

بعد انصرافهما ظل ساري قليلا لوحده متضايقا حتى دخلت عليه أمينة حاملة الطفلة وجلست. لم يتطرقا أول الأمر الى الزيارة الكئيبة، ولكنهما بعد قليل، بعد أن فكر كل منهما من جانبه بالزيارة كواقعة طريفة تثير الضحك، وقد سرت عنهما أنغام موسيقى جيمس لاست المنبعثة من إذاعة عثر عليها ساري وهو يدير مؤشر الإذاعات في الراديو بحثا عما يتشاغل به، وشيئا فشيئا تبددت حالة الكآبة المخيمة عليهما، وانطلقا بتعليقات مرحة وأخذت أمينة تقلد نظرات جمعة اليها فيما كان ساري يقهقه. في تلك الليلة ناما في الفراش ولم يحترسا كالعادة من أن تسمع جارتهما صوتيهما المتأوهين من شدة انصهار جسديهما ببعضهما بعضا أو صوت السرير وهو يحتك بالجدار الفاصل بين البيتين، الجدار الذي بسمك طابوقة فقط في بيوت العمل الشعبي. وبمثل هذا قضيا الليلة التي سبقت ذهابهما الأخير الى بغداد أيضا.

٦

يسمع رجلا يسعل في الشارع وبابا يفتح فيصدر صريرا لإحتكاكه من الأسفل بالأرضية الإسفلت. ربما عاد للتو أبو سلمان الذي يسكن في البيت المقابل من واجبه الليلي الذي يقضيه كالعادة على خطوط السكة ينظم إشاراتها للقطارات التي تمر بمحطة باب المعبر، قطار صاعد وقطار نازل يتبادلان الاتجاهات في يوم آخر فيصبح الصاعد نازلا والنازل صاعدا، وقطارات بضائع أغلبها أسلحة ومرْكبات ومعدات عسكرية، ولا توجد قطارات تحمل معدات للحياة وبهجتها إلا نادرا.

ينظر الى ساعة بيته الجدارية في غرفة الجلوس، الساعة السادسة والنصف صباحا، لا يزال لديه الوقت ليعزل الأثاث والأشياء التي يريد شحنها الى بغداد. لكنه بعد قليل من التفكر قرر أن لا يعزل شيئا فأثاثه قليل بسيط، حتى أنه لا يملك جهاز تلفزيون بل مذياعا قديما كان يعمل على البطارية وتم تحويره ليعمل على الكهرباء، وقد وضعه على منضدة خشبية في ركن الغرفة بين أريكتين خشبيتين ليس عليهما سوى فرشتين اسفنجيتين مكسوتين بقماش ملون بأشكال هي أقرب الى البقع باهتة الألوان. سيشحنه مع أثاث الغرفة الخشبية، أما الباقي فسيهبه الى الجيران، حتى خزانة الكتب التي هي في

الأصل "ميز تواليت" قديم قضى أياما في أوقات فراغه يحوره بإضافة رفوف اليه من قطع أخشاب جمعها من فائض أخشاب قسم النجارة.

يتوجه الى المطبخ، يرفع غطاء الثلاجة الخشبية التي اشتراها من محل لبيع الأغراض العتيقة في سوق باب المدفعي مع مروحة أرضية هي كل ما كان لديه ليخفف وطأة الصيف عنه وعن زوجته وابنته. ينظر في صندوق الثلاجة المبطن بالصفيح المغلون ثم يلتفت نحو أشياء المطبخ الأخرى... سيأخذ طباخ عشتار الصغير الموضوع على منضدة حديدية،.... والمدفأة النفطية وعدة المطبخ من صحون وأوان... هذا كل شيء. سيترك كيسي الرز والسكر وصفيحة الدهن وجليكان النفط لجيرانه.

يخرج من جيبه الكعكة التي اشتراها من علاوي الحلة بالأمس، أخرجها من الكيس الورقي وأخذ يتجول في الباحة المستطيلة وهو يأكل ثم دخل الى غرفة النوم.

الفراش باق على حاله يوم تركاه في الصباح الباكر، هي تحمل ابنتهما وقد البستها ملابس شتوية سميكة ولفتها بعناية ببطانية أطفال، وهو يحمل حقيبتين كبيرتين، واحدة من الجلد وواحدة من القماش المشمع، معبئتين بما يحتاجونه من ملابس وحاجيات خفيفة لوقت قد يطول في بغداد.

الفراش كما هو...الشرشف المرسومة عليه زهور كبيرة زرقاء ملموم بلا نظام بعد أن دفعاه بقدميهما ليظلا مكشوفين للبرد بعريهما ولكنهما لم يكونا

يشعران به وهما في دوامة لذة عطلت كل إحساس خارج جسديهما الناضحين عرقا حتى انتبه الى أمينة تضع أصابع يدها على فمه وتعض شفتها السفلى، توشك على أن تغفو إعياء، غفوة هي أقرب الى نعاس مشبع بوجع الجهد الذي بذلته في الذهاب الى أقصى الانتشاء، لذة قاسية استمدت قساوتها من الشعور بأن هذه الليلة ربما تكون آخر ليلة يناماني فيها معا. ربما يصحوان الصبح فيجدان من ينتظرهما عند الباب فيلقون القبض على ساري ، أو عليهما كليهما، أو في مكان آخر، في الوادي، في السيارة، أو في طريقهما الى المرأب، أو في نقطة السيطرة على طرف المدينة.

كانت ليلتهما تلك مختلفة عن كل الليالي، وممارستهما للجنس تكتنفها الهواجس من أن أنهما لن يستطيعا النوم معا أبدا، وأنهما قد يفقدان بعضهما بعضا الى الأبد، ولذلك صبا فيها كل ما يملكان من الرغبة، من شهوة الحياة، ومن التعلق العنيف للخائف من الفقدان، وفعلا على هذا الفراش ليلتها كل ما يرغبان في فعله احتجاجا وتحديا لمخاوف الضياع والفراق المنذرة وهما يحاولان في ثورتهما الجسدية، مع ذلك، قدر استطاعتهما، أن لا يصدر عنهما أو عن حركتهما صوت يثير إنتباه عائلة أم زكريا بما يدلل على ما يفعلانه.

يمد يده يتحسس الفراش، كان مشبعا ببرد الغياب، دار حول السرير الحديدي، وعند الجدار تحسس البطانية التي سحبها ليلتها من عند قدميهما ليغطي بها عريها الجميل النابض بمتعة لا تزال دافئة، إذ خطر له فجأة أنهم قد

يداهموا البيت، من يدري، سحبها لا إراديا ليغطيها بها وكأن المداهمين أصبحوا عند باب الغرفة فعلا.

أدنى وجهه من وجهها فلامس خدها المتعرق وخصلة مبللة بالعرق من شعرها برغم برد الشتاء:

-عندما تستطيعين إرتدي ثيابك.

وشرع هو بارتداء ملابس الخروج ثم ظل جالسا حتى الفجر على الأريكة في الغرفة الأخرى تاركا لأمينة مدفأة علاء الدين العتيقة في غرفة النوم حيث أشعلوها قبل أن يأويا الى الفراش طلبا لبعض الدفء.

٧

ينهي أكل الكعكة ويمسح راحتي يديه ببعضهما بعضا. يتناهى الى سمعه صوت قاطرة المناقلة الرومانية المألوف. لقد تعود سمعه منذ سنوات على هذه الأصوات وأصبح قادرا على فك شيفراتها دون أن يرى مصدرها، يمكنه أن يعرف الآن إذا كانت هذه القاطرة الرومانية تسحب شاحنة لنقل البضائع أو عربة صهريج لتحولها على الخط الذي يمر مباشرة أسفل المرتفع خلف صف البيوت التي يقع بيته فيها أولا بداية الزقاق من جهة خطوط السكة. ينصت للصوت يتحول الى صرير يبطئ شيئا فشيئا وتتوقف القاطرة خلف البيوت. لا بد أن سائقها واحدا من إثنين لا يوجد غيرهما هنا مسؤولا عن تشغيل قاطرات المناقلة، العجوز منهل و صاحبه بدر. يتمنى أن يرى بدر ويسأله عما جرى في فترة غيابه ويفكر أن يخرج ليلقي نظرة سريعة من ركن البيت ليعرف من هو سائق القاطرة، ولكنه لا يحتاج الى الخروج فلا يلبث أن يسمع حركة أمام باب البيت ويرى عبر باب غرفة النوم المفتوح قبضة الباب الخارجي تنزل الى الأسفل ببطء، شخص ما في الخارج يريد فتح الباب دون أن يثير الإنتباه، فيتقدم ساري ، تتنازعه هواجسه الأمنية، ويخرج ليكون في الباحة. لا يريد أن يلقي القبض عليه أحد في غرفة وكأنه مختبئ فيها خوفا، وعلى نحو ما

سيكون إلقاء القبض عليه مؤلما له أكثر بكثير إذا حدث قبل أن يستطيع تدبر نقل أثاثه وأشياء عائلته الشخصية. يقف أمام الباب على مبعدة خطوات وهو يركز بصره رافعا رأسه محاولا أن لا يبدو عليه أدنى ما يوحي بأنه خائف. لا بد أن وقفته تلك وهيئته المستفزة تخلق عند المتفاجئ توترا شديدا بحيث أن بدر الذي يطل برأسه من فتحة الباب بحذر يجمد في مكانه ولا تنبسط ملامح وجه وتتغير بعد قليل الى ابتسامة، إلا بعد أن يرى وجه ساري يتهلل فرحا للقاء غير متوقع. لكن بدر لا يتحرك من مكانه أو يغير وقفته ويظل ممسكا بقبضة الباب وهو على انحنائه حتى يتمالك نفسه ويقول بصوت خفيض مترجرج:

-رأيتك قادما في الطريق وجئت لأسلم عليك...

ويدخل رادا الباب خلفه بحذر شديد ثم يواجه ساري ويتنحنح قبل أن يكمل:

-... لقد أفزعتني بوقفتك هذه... وهذا الأنبوب الحديدي ما الذي تفعل به؟

ينظر ساري الى حيث أشار بدر فيدرك عندئذ أنه يمسك بيده قطعة أنبوب ماء كانت مسندة الى حائط الغرفة تحت النافذة وتناولها دون أن يشعر. يبتسم ويركنها حيث كانت. يتعانقان بحرارة:

-سعيد برؤيتك يا صاحبي بدر.

-وأنا أيضا...اشتقت اليك كثيرا. ليس لدي صديق هنا أقرب منك الي كما تعلم.

-هل مناوبتك الآن؟

-أجل... وكنت أناقل شاحنات حين لمحتك فتوجهت بالقاطرة على نفس الخط وأوقفتها الآن خلف البيوت.

-صدفة حلوة أننا التقينا. كنت بحاجة الى من يساعدني في تفكيك خزانة الملابس والسرير.

يدخلان في هذه الأثناء غرفة المعيشة ويصيران في وسطها فيتوقف بدر ويلتفت نحو ساري :

-تفكك؟ هل تريد نقل أثاثك؟

-نعم.... وأذهب الى قسم البضائع ليخصص لي الكاتب شاحنة أضع فيها الأثاث....

يجلسان على التخت الخشبي ويواصل ساري كلامه:

-... يجب أن أنقلها بسرعة. من هو الكاتب الخافر في قسم البضائع؟

-صاحبنا شكر التركماني... تعرفه...

-طبعا أعرفه.

ثم ينظر الى بدر مليا. يتأمل وجهه الأسمر ناعم الملامح الذي يشبهه ساري بوجه المغني كمال محمد فكان يمازحه أحيانا بهذا الشأن طالبا منه أن

يغني له أغنية "ردي بينه" وبدر يكتفي بالضحك، ينظر ساري بتمعن محاولا أن يستشف شيئا قد يتحرج بدر من مصارحته به. لكن الوجه الذي يشع طيبة ريفية يكتسي في الوقت نفسه رزانة مصمتة في المسائل الحساسة، وهذا جانب يعجب ساري ويجعله يشعر دائما أن بإمكانه الإعتماد على بدر في كتمان ما يجدر كتمانه. لم يكن بدر معه في الحزب ولا في أي حزب، ولكنه من عائلة جنوبية من النوع الذي يرضع أبناؤها مع حليب أمهاتهم الميل الى الحق وكره الباطل، ينحدر من عائلة عريقة في الميول الثورية، وعريقة في الفقر أيضا. مع ذلك فقد نشأ بدر غير ميال الى الإنتماء الحزبي، إلا أن ساري يثق به منتهى الثقة منذ أن كانا طالبين في معهد السكك في دورة واحدة، وربما كان بدر الوحيد من بين أصدقائه الذي يعرف عنه الشيء الكثير مما يحرص هو أن يحجبه عن غيره، ومن القليلين الذين لعوائلهم علاقات به وبزوجته وإن كان وصف عائلة على عائلة بدر مبالغ فيه إذ لا يوجد غيره وأمه في البيت، هذه العجوز التي لم تشأ أن تترك آخر العنقود يعيش لوحده في هذه المدينة بعيدا عنها مئات الكيلومترات فجاءت معه حالما حصل على دار، وتزامن حصوله على الدار مع حصول ساري أيضا على دار بعد أن خاضا صراعا لأشهر إذ أبى المدير أن يوافق على منحهما سكنا لوجود علامات استفهام عليهما عند الجهات الأمنية.

لطالما كانت أمه لطيفة مع أمينة..... تذكر يوم الاحتفال بشراء بدر لمروحة سقفية. أخذ يتحدث لساري ساعة عن الفضائل "الإشتراكية" للمروحة السقفية التي توزع هواءها على مساحة الغرفة كلها فتروّح على جميع من فيها بالتساوي، أما المروحة المنضدية، "الرأسمالية"، ما أن يصل هواؤها الى طرف جسمك يكون الطرف الآخر قد سبح بالعرق، وتحدث عن اختياره للمروحة الجديدة من بين أنواع المراوح خلال تجوال طويل في المتاجر. ضحكا كثيرا من قسوة الفقر التي تتحول الى مهزلة تستحق الضحك. كان المدعوون الى الوليمة هم انفسهم، بدر وأمه وساري وأمينة فقط لا غير، وضمت مائدة الطعام هذه المرة صحن رز لكل واحد وفي الوسط صحنين مرق صغيرين يتوسطهما صحن كبير من الثريد، وملكة الوليمة، دجاجة بالتمام والكمال.

بعدها ترك ساري وبدر هواء المروحة السقفية للمرأتين والطفلة وخرجا الى الحديقة التي لم يتسن لبدر العناية بها فكانت مهملة تملؤها الأعشاب الضارة . جلس على الحصير وهو ينظر الى ما حوله فلاحظته أم بدر من مكانها. قالت له بابتسامة قليلة الأسنان وصوت متلعثم:

-لا تخف... الثعابين لا تصعد على الحصير لأنه ناعم.

حقا هي تعرف عنه كرهه للثعابين المختلط بالاشمئزاز في هذه المنطقة التي لا يندر مشاهدة الثعابين فيها.

تنفرد أم بدر بأمينة لتسألها عن أحوالها وأحوال الطفلة، وبكل حنان الأم، تعلمها ما لا تعرفه من الأمور التي لا بد للأم الشابة من أن تعرفه عن العناية بطفلها البكر. كانت هذه العلاقة مبعث سعادة لهما، لأمينة ولأم بدر، فكلاهما حصلتا على تعويض لشيء جوهري مفقود، إنها سعادة لأم بدر أن تمارس دور الأم دائمة القلق على وضع ابنتها وطفلتها، أمومة ذات خصوصية خلفتها وراءها في مدينة قصية، وسعادة لأمينة لأن وجود هذه المرأة يمدها بالقدرة على تحمل العيش في هذه المنطقة بعيدا عن أمها ويساعدها على التكيف مع بيئة غريبة عليها تماما. إلا أن أمينة، كالمعتاد في حياة التجاور بين الناس، تعرفت شيئا فشيئا على بعض جاراتها، خصوصا أم زكريا، الأرملة الكردية التي لم تتخل عن الزي الكردي حتى عندما جاءت من الريف الى المدينة بعد أن تزوجها رجل أرمل يعمل ميكانيكيا في قسم الآليات، بذلت اهتماما خاصا بأمينة وبطفلتهما التي كانت تعلق على زحفها على مؤخرتها وليس على بطنها كما يزحف معظم الأطفال بأن "مؤخرتها ثقيلة" وتضحك هي وأمينة وهما تنظران اليها كيف تزحف، وكانت، هي وابنتها سحاب التي ارتبطت بصداقة مع أمينة بحكم التقارب في السن، تتفقدان أمينة في غيابه لأيام عن البيت وتسألانها عما قد تحتاجه، ولذلك قرر أن يترك لسحاب مجموعة المجلات التي كان يشتريها لأمينة ومن بينها أعداد مجلة الإذاعة والتلفزيون.

ينتهى كل شيء الآن، على الأقل بالنسبة لساري وأمينة، في بلد يكون انقلاب حياة أو اختفاؤها من عاديات الأمور. علاقات إنسانية تنسج شرانقها بترو وجمال ثم تتحطم فجأة قبل أن تكتمل وينحل النسج مزقا، ويذوب مستحيلا الى ذكريات مؤلمة.

-كيف الأحوال؟

يلتفت بدر الى ساري وكأنه يستفيق على سماعه السؤال من تأمل ما وابتسم بوهن قبل أن يجيب:

-سؤال غامض يشمل أشياء كثيرة. أحوال من وماذا؟ إذا كنتُ قد فهمت سؤالك على وجهه الصحيح، فأقول لك أنا بخير... لحد الآن.... هم يعرفون أني غير منتم لأي حزب... استدعوني لطلب معلومات فقط... لكن....

-لكن ماذا؟ أنت لا تخفي عني شيئا.

-أظن مازن، المأمور الفني في الآليات، اعترف وأعطاهم معلومات... أخذوه من البيت ليلا وأطلقوا سراحه بعد يومين وقد صادفته بعدها في السوق وجلسنا في مقهى منزو. كان كئيبا وحزينا....

أطرق ساري وهز رأسه:

-لطالما كان مسالما طيبا. لا ألومه على وحشيتهم. عاش يتيما منذ طفولته وعمل في كل مهنة مرهقة وجاهد ليكون له عائلة صغيرة ويبدأ بالعيش. حياة

طبيعية وأحلام جميلة ثم يأتون ليضعوه أمام ضياع هذا كله إن لم يخضع لهم، أو يسايرهم على الأقل....

-قال لي أنهم أروه مجموعة كبيرة من الصور للأعضاء في التنظيم ولغيرهم التقطت في مناسبات شتى، حتى في مناسبات حزبية يفترض أنه لا يحضرها إلا الأعضاء ولا يصور فيها إلا مصور خاص....و.....

وسكت ناظرا للحظات الى ساري بعينين واسعتين وقد بان على تعابير وجهه الأسف:

-... قال أنه رأى صورة لك ولزوجتك ولم تكن طفلتكما معكما وكانت تقف معكما فتاة شقراء تحمل علبة كارتونية فيها أشياء كالزهور...

وسكت مرة أخرى ماسحا على ركبتيه بيديه:

-... لديهم كل المعلومات، كلها يا ساري ، ولهذا هم ليسوا في عجلة من أمرهم كما في المرة السابقة... عندما اعتقلونا من داخل المعهد... اعتقلوا الجميع... كل واحد عليه مؤشرات ومهما كانت ميوله، ليضبطوا معلوماتهم الأمنية. أطلقوا سراحنا بعد شهر.... هل تذكر؟

هز ساري رأسه متفكرا. هل يكون مصور المكتب الصحفي هو الذي التقط لهم الصور التي رآها مازن....لا... لا يمكن أن يكون عميلا للأمن. لابد أنهم ألقوا القبض عليه وأخذوا الصور منه.. ربما داهموا بيته.. لكن

ساري كلما فكر باحتمال يراه أكثر منطقية وإقناعا، راوده المزيد من الارتياب، وكلما تعددت الاحتمالات لم يبد أن أيا منها أقرب الى الحقيقة من غيره.

إنه يتذكر مناسبة تلك الصورة، حفل عيد ميلاد الحزب في حديقة المقر. تركوا يومها ابنتهما (طيبة) مع أم زكريا ليأخذا حريتهما في الحركة.

كانا واقفين جانبا يتناولان المرطبات حين تقدمت منهما هذه الفتاة التي كانت توزع الورود الحمر. من يأخذ منها وردة يدفع مبلغا من المال تبرعا، أو هكذا يفترض أن يفعل. توجهت الى أمينة كما هو متوقع وظلتا للحظات تنظران الى بعضهما بعضا ولم تفهم أمينة فبادرت الفتاة قائلة:

-رفيقة.... وردة؟

ظنت أمينة أنها بائعة ورد فابتسمت وهزت رأسها بالرفض. شعر ساري بالإحراج فتبع الفتاة واستوقفها وقال لها معتذرا:

-أعذريها... هي جديدة على هذه الأمور وليست عضوة في الحزب.

أخذ وردتين ووضع في العلبة مبلغا من المال.

لم تنج أمينة من سخريته ذلك اليوم بعد أن عادا الى البيت. أخذ يبتكر بين الحين والحين نكتة جديدة وهي تضحك وتغطي وجهها بيديها الى أن نفذ صبرها وقالت له بأنها ستخاصمه إن استمر بالسخرية منها.

-وناظم... هل سمعت خبرا عنه؟

-إختفى.

-ربما اعتقلوه؟

-لا... لقد قام بقتل ضابط أمن المنطقة التي يعمل فيها وهرب. أرسلوا الى هنا برقية بذلك.

-بماذا قتله؟

سأل ساري هذا السؤال وقد خطر على باله احتمال أن ناظم حصل على سلاح كما كانا يتمنى هو وناظم، إذ أنهما في الفترة التي أخذت السلطة تكثر فيها من مضايقتها لأعضاء الحزب وأصدقائه أصبح الحصول على سلاح هو موضوع أحاديثهما الوحيد.

_ لا أدري بماذا قتله. لكن سائق القطار محسن أسر لي أنه رآه في المحطة العالمية بين الناس النازلين من القطار وخرج من باب جانبي.

يعرف ساري أن ناظم كان سيختفي عاجلا أم آجلا فبعد أن ضايقوه كثيرا في محطة باب المعبر ورأوا أنه لا يمكن أن يكف تحركاته المقلقة لهم وتحريضه المبطن للناس ضد السلطة نقلوه الى محطة نائية.

في تلك المحطة يوجد موظفون لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين بعضهم من قرية قريبة تعيش على زراعة محاصيل صيفية، والصيد البري والتهريب، تهريب السلاح، وقد بعث هذا شيئا من الارتياح في نفس ناظم الذي كان يميل مثل ساري الى فكرة التنظيم السري المسلح، وقد رأى أن وجوده في الوظيفة قرب قرية يتعاطى أهلها التهريب قد يمكنه من الحصول على سلاح

في المستقبل بأن يتظاهر بأنه يتاجر بالسلاح، إذا سارت الأمور كما يأمل، فسارع الى الحصول على موافقة لإسكان عائلته في الدار الوحيدة الشاغرة في دور المحطة. لكن سمعته سبقته كالعادة الى المحطة ثم وصل تقرير الى المسؤول الأمني فيها يشدد على مراقبته.

جاء اليوم الذي أخذت فيه عائلته تقضي ليالي لا تذوق فيها طعم النوم، خائفة مترقبة. ذات ليلة رميت بضعة احجار على البيت وقعت في فنائه وهم يتناولون العشاء. كانت الكهرباء مقطوعة ويسود الظلام في الخارج وليس بمقدور ناظم أن يعرف من الذي رمى الحجارة:

-مجرد أطفال عابثين بالتأكيد....

ثم أضاف مخاطبا ولديه الصغيرين وهو يبتسم:

-..... ربما هم منزعجون لأنكما لا تشاركانهم ألعابهم.

علقت زوجته بنبرة متذمرة:

-ألعاب؟ أية ألعاب؟ أطفال المجمع أصابتهم الكآبة من السكن وسط هذه الارض الجرداء التي لا تختلف عن الصحراء في شيء، أما أطفال القرية فكأنهم أطفال الهنود الحمر الذين كنا نشاهدهم في الأفلام، ويذهبون للعب في أماكن بعيدة أقربها التلال.

وأخذت تلم بقايا الطعام بحركات تشي بانزعاجها:

-لن أدع طفليَّ يذهبان مع أطفال غرباء لا نعلم عنهم شيئا...

ابتسم ناظم ابتسامة مرتبكة يداري بها أسفه لأنه لا يستطيع أن يوفر لعائلته معيشة أفضل وحياة منفتحة، حتى ولو كالتي كانوا يعيشونها في المدينة حيث الجيران الكثر والأسواق ومدينة الألعاب والمتنزه.

بمرور الايام صار أكيدا أن رمي الحجارة ليس نزوة عابرة وأخذت الليالي التي ترمى فيها الحجارة على دار ناظم تتكرر، وهناك من أدخل في بال الطفلين أن المنطقة مسكونة بالجن الذي ينشط ليلا. لكن ناظم عرف شيئا آخر... لقد أشاعوا بين أهل المنطقة شديدة المحافظة بأن هذه العائلة التي سكنت حديثا في المجمع من الكفار الذين يعادون الإسلام، وهكذا أغروا بعض الأطفال والمراهقين برمي الحجارة على الدار واطلاق الصيحات الغريبة. فكرت الزوجة أنها إذا بقيت مدة أطول في هذا المنفى فإن ولديها سيصابان بالجنون لا محالة، وحزمت ما تحتاج اليه من ثياب وأشياء خفيفة لها ولولديها وأخذتهما معها في أول قطار متجه الى بغداد توقف في المحطة تاركة ناظم الذي استمر في عمله وفي المبيت في الدار غير عابئ بما يحدث أحيانا من رمي للأحجار على البيت ومن صيحات يتفنن مطلقوها في تنويعها، وكان رد فعله الوحيد أن يقوم في الصباح بجمع الحجارة ورميها خارجا وهو في طريقه الى المحطة.

يقول بدر خافضا صوته، وهو يلتفت بكليته الى ساري ويحرك يديه باهتمام ويضغط على كلماته:

-أرى أن لا تخرج من البيت قدر الإمكان. حسنا فعلت حين أخذت عائلتك الى بغداد... لو كانت زوجتك باقية هنا لربما واجهت ظروفا صعبة.

-هل يوجد خطر معين تنبهني اليه؟

- ضابط أمن المحطة نبهان متحزم لكم بحزامين ويتجول في المنطقة ليل نهار هو وربعه، ولا أستغرب إذا ما صادفنا أحدهم عندما نخرج الآن.

-وكيف سأحمّل أثاثي وأراجع مكتب الشحن؟

-قل لي ما الذي تريد نقله.

-نظرا للظروف... ليس شيئا كثيرا. سأفكك أجزاء غرفة النوم الخشبية وأرزم أشياءنا الشخصية والمدفأة والطباخ والمروحة وبعض الأغراض الأخرى.

-والباقيات؟

ينظر الى بدر مبتسما ويجيب:

-خذ منها ما تريده وأعط لغيرك ما لا تريده، وأقفل بعدها البيت وسلم هذه المفاتيح للمهندس فتحي في قسم الإسكان.

-حسن إكتب لي رقم هاتف في بغداد يمكنني الإتصال بك عن طريقه.

ينظر ساري نظرة غامضة الى بدر وهو يقول:

لا يوجد في بيت أهلي هاتف ولكن هذا رقم هاتف الجيران وهم أناس طيبون وسيرسلون لأهلي إذا اتصل بهم أحد.

يتناول من على المكتبة ورقة ويكتب الرقم والإسم عليها بقلم قوبيا وجده على الرف ويعطيها لبدر الذي يطويها ويضعها في جيب سروال بدلة العمل الزرقاء..

-أنظر الآن، ما سنقوم به هو.... أنت تفكك وانا أنقل ما تشير علي بنقله، ولن يكون علي صعبا لأن الخزانة والسرير سيكونان ألواحا. العربة التي كنت أقطرها عائدة لقسم البضائع ونحن في سبيلنا لتجميع عربات النقل لقطار البضائع النازل الى بغداد. في العربة الموجودة الآن خلف البيت أغراض أيضا مشحونة لبغداد وسأضع أغراضك معها على جنب وأعمل بها قائمة اسلمها لشُكر وهو يدخلها في أمر الشحن. أنت تعرف صبحي مأمور البضائع في المحطة العالمية.. سأتصل به ليعتني بأمر أثاثك الى أن يأتي من يستلمها..... كل شيء منظم الآن... أليس كذلك؟

يبتسم ساري ويقول:

-أنت طوال حياتك تحسن التنظيم.

يضحك بدر:

-لم نمتلك يوما شيئا كثيرا ومعقدا يصعب تنظيمه.

ثم يتنهد ويضيف وهو يتهيأ للنهوض:

-فلنبدأ... لننتهي من الأمر بأسرع ما يمكن...

ولكن ساري يمسكه من زنده قبل أن ينهض:

-بدر.. إذا استدعوك مرة أخرى لا تضحّ باستقرار حياتك....

-ماذا تقصد؟

-إذا سألوك عني قل لهم ما تعتقد أنه سيكفيك شرهم... وواصل حياتك. لا بد أنهم سيعلمون بأنك نقلت لي الأثاث وعليك أن تهيئ تفسيرا مناسبا.

يضع بدر يده على يد ساري ويقول بتعاطف:

- لقد خطرت لي الآن فكرة... عندما نكمل التحميل تلحق بي وتصعد معي في القاطرة وفي المحطة تنتقل الى القاطرة التي ستسحب القطار.. سائقها عمار... تبقى معه الى أن يصل بغداد وتستلم الأثاث بنفسك.

ينتبه ساري الى أن بدر يتجاهل ما قاله له توا ولم يعلق بشيء، أو يبدي رفضه، ويحس ساري في تلك اللحظة، أن علاقتهما في هذا الظرف تستحق الشفقة، لا بل أنهما كليهما يستحقان الشفقة على ما يبذلانه من جهد للبقاء متزنين، ويُبقيان ما يتشبثان به من نقاء بمنجى من التلوث، ويبقى الماضي الجميل بنقائه جميلا في الذاكرة دون الشعور بشيء من ندم أو عار. يريد ساري أن يجنب بدر مواجهة هذا الشعور فيرخص له أن يقول لهم ما يريد. هو لن يعود الى هنا بالتأكيد كما أنه لم يعد واثقا من أنهما سيلتقيان مرة أخرى، وربما يكون أفضل ما يقدم لطيبته وطيبة أمه، لمسة من سلام على حياتهما بعد الفراق، بادرة محبة يتمنى أن تساعد في أن يعيشا بلا مشاكل، بأن يحله من

التزامه بحفظ أسرار اطلع عليها، ليست أسرارا حزبية تحديدا، بل من نوع الآراء و اللقاءات وما شابه، ولكن المحقق سيكون راضيا لسماعها من بدر...

يبعد بدر نظره عن ساري بارتباك وهو يقول:

-هيا... لا نضيع الوقت.

عندها يقول ساري :

-أنا آسف إذا أزعجك كلامي.... مع ذلك لا أقصد ...

-أنا أعرف... أعرف تماما قصدك النبيل، ولكن كونك صديقي أو حتى مجرد زميلي وجاري في المجمع وأوصيتني قبل ذهابك بنقل أثاثك سيكون تفسيرا مناسبا. الأثاث ليس منشورات. وتأكد أنهم لن يثيروا مشكلة ويسرهم إخلاؤك الدار فلديهم الكثير من المنتسبين طالبي السكن الذين يفضلونهم عليك...

عند هذه الكلمات تتعكر ملامح بدر ويبين عليه الحزن لأنه سيفارق ساري فراقا نهائيا كما يرجح. يهز رأسه محاولا التركيز فيما هما فيه الآن، يقول:

-إننا نضيع الوقت هكذا. سنتحدث على راحتنا فيما بعد. أحتاج الآن شيئا أفك به البراغي...

آخر شيء يأخذه بدر الى الشاحنة هو المدفأة النفطية بعد أن يفرغها ساري من النفط، ويصبح كل ما يريد أن ينقله في الشاحنة، والأشياء الشخصية

الورقية، بضمنها الصور الفوتوغرافية التي التقط بعضها لأمينة بنفسه بكاميرا استعارها من صديق، ورسائل، وذكريات، داخل حقيبة من الجوت.

بعد قليل من التأمل يقول لبدر:

-بدر. أنا لست متأكدا من أني سأتوجه مباشرة الى بغداد، وأنت تعرف أين يسكن أهلي فقد زرتنا أيام الدراسة في المعهد. خذ هذه الحقيبة عندك وسلمها الى زوجتي متى سنحت لك الفرصة للذهاب الى بغداد، ولا تنس أن تتصل بأهلي ليستلموا الأثاث.

ويعطيه المفاتيح ليقفل البيت بعد أن ينتهي من الأغراض الباقية ويكتب باسمه مذكرة إخلاء الدار.

ثم يذهب بالمجلات الى الجدار الذي يفصل بين باحة بيته وبيت أم زكريا حيث يوجد قفص حديدي كبير للبلابل وطيور الحب على الجانب الآخر من الجدار فيدفع المجلات من فوق الجدار لتكون فوق القفص ويتركها هناك... ستجدها سحاب وتأخذها. يهم بالخروج لكنه يتوقف وسط الباحة وفي اللحظة الأخيرة يقرر أن يعود الى كتبه القليلة التي تركها في المكتبة فيضعها في حقيبة قديمة عنده من حقائب السفر التي تحمل على الكتف كان يضع فيها بعض الأدوات. يلقي نظرة سريعة وهو مبتسم على غلاف كل كتاب قبل أن يضعه في الحقيبة.... رواية الأم لمكسيم غوركي وكتابي الجدلية التاريخية والجدلية المادية ورواية كل شيء هاديء في الميدان الغربي وديوان شعر لمحمود

درويش ورواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ ورواية وداعا يا غولساري مع رواية جميلة وبضعة كتب من سلسلة كتابي اشتراها في مراهقته. يتذكر متى وكيف اشترى كل كتاب والأحداث الحميمة التي يذكره بها. يهز رأسه ويغلق الحقيبة وينهض قاصدا الباب الخارجي.

٨

يخرج من البيت وينظر يسارا فيقع بصره على أم زكريا التي كأنها تنتظر خروجه واقفة خلف بابها وما أن تسمع الصرير الخافت لباب المنزل الذي لم يعد بيته الآن تسرع بالخروج ناظرة اليه مبتسمة بخجل وتشير بيدها البيضاء الهزيلة إشارة فهم منها أنها توديع، ليس توديعا فقط بل تحية سلام تحمله إياها الى زوجته أمينة، ليس بإمكانها أن تتكلم معه العربية بيسر، وستتعثر في الكلام وترتبك، ولكن بإشارة يد مودعة وملامح وجه تعبر عن الشوق والأسف لفراق مفاجئ، قالت له كل ما كان يمكن أن تقوله الكلمات، وفهم، واعتصره الألم حين رآها تنسحب بخجل وارتباك الى داخل بيتها. هناك شيء آخر... يدرك أنها عرفت من أحاديث الناس السبب وراء اختفائه وزوجته هذه الفترة وعودته هكذا، ولا بد أنها سمعت الحركة في البيت والأصوات الصادرة عن تفكيك الأثاث ونقله. فهمت هذه العجوز الطيبة حراجة الموقف وفضلت أن يكون التوديع سريعا، مفهوما قدر ما تستطيع، متواطئا مع رغبته في أن لا يكون مضطرا للتحدث مع الناس.

مع أن قلة الحركة في شوارع منطقة سكنية تابعة لمؤسسة حكومية في صباح يوم عطلة أمر عادي إلا أن ساري ، بقدر ما كان خلو الشارع يريحه،

تنقبض نفسه وهو ينظر الى الزقاق المقفر. ينعطف من البيت متوجها الى حيث أوقف بدر قاطرة التحويل والشاحنة، والقى نظرة سريعة الى جهة مأوى القاطرات، ثم الى ما وراء الخطوط، الى جهة المحطة وبيوت كبار الموظفين. لم يلحظ حركة. يبدو أنه الوقت المناسب لما يكره أن يسميه بأي اسم، هرب أو إفلات أو أي شيء. لكن نظرة نحو القاطرة جعلته يتوقف وينظر مليا. كان بدر يتحدث الى شخص أو عدة أشخاص لا يراهم ساري لأنهم في الجهة الأخرى من القاطرة. التفت بدر نحوه وكان في نظرته وحركة يده إيحاء بالحذر. أشار له بيده إشارة حرص أن لا ينتبه اليها الواقف من الجهة الأخرى قصد بها أن يحذره من المجيء. إذاً ربما لا يكون في صالح ساري أن يراه الشخص أو الأشخاص الذين يتحدثون مع بدر. مع ذلك دهش من نفسه لأنه لم يحاول أن يتوارى عن النظر بل ظل واقفا بهدوء ينتظر أن تحين الفرصة ويصعد هو الى القاطرة الى جانب بدر. يلتفت الى يمينه فيقع بصره على تنور طين متروك لابد أنه كان لساكني الدار قبله إذ لم ير أحدا يشعل فيه نارا أو يخبز فيه.

نما العشب زاهي الخضرة على جوانبه، وحتى في باطنه، العشب نفسه الذي يطلع في هذا الوقت من كل عام ويملأ الأرض وتظهر الزهور الدقيقة الرقيقة بين الأحجار بألوانها الهادئة، صفرا وبيضا، العشب نفسه الذي يحف ببيته ويطل حتى من السقف حيث نما أيضا على ترابه، التنور نفسه الذي

شاهد ابنته تحبو نحوه وتقبض بأصابعها الصغيرة على عشبه وتحاول سحبه ثم تضع يدها الفارغة في فمها وأمها أمينة تضحك وتنظر اليه وهي واقفة في ركن البيت مرتدية ثوبا منزليا جديدا فيما كان هو يرتقي الأرض الصاعدة نحو المجمع آتيا من المأوى، فيحمل ابنته ويقبلها ثم ينظف يدها من اللعاب بمنديل. يخطو تلك الخطوات الثلاث الى داخل البيت وهو يحمل ابنته، ويضمها الى صدره وزوجته تسير خلفه.

يبذل جهدا كبيرا ليبعد هذه الذكريات التي حاصرته فجأة، ويركز انتباهه على ما يحصل أمامه.

للحظة تتملكه رغبة في أن يعود، يستدير ويخطو تلك الخطوات الثلاث حاملا ابنته ، ويدخل البيت كما دخله وهو يضمها الى صدره وزوجته تسير خلفه واضعة راحتيها بلطف على كتفيه. لكنه هذه المرة، إذا كان سيعود، فلكي يجلس في الغرفة التي تمتلئ بالأغراض المبعثرة، ويفكر، هنا.... عليه أن يقر أنه بالمحصلة النهائية وحيد فيما يتعلق بمواجهته للسلطة وليس من أحد هنا يمكنه أن يقدم له يد العون أو مجرد إظهار التعاطف إذا وقع في يد رجال الأمن. يهز رأسه... هل هذا معناه أنه نادم لأنه جاء الى هنا؟ لا... ليس نادما. كل ما هنالك أنه يتمنى أن الظروف أفضل... نعم جاء ليرى إن كانت الظروف أفضل، إن كانت ملائمة لأن يفعل شيئا بعد أن اطمأن على عائلته، ولقد استجلى الأمر، نقل أثاث بيته ومعها أشياء عائلته الخاصة، وعرف من

بدر خلاصة الوضع. ألم يكن هذا ضروريا بالنسبة له؟ أن يفعل شيئا أو يعرف على الأقل أن فعل أي شيء أصبح مستحيلا، وقد عرف، فإلى أين الآن؟ ليس بإمكانه فعل شيء وهو لا يجد أحدا يعمل معه. هل يذهب الى بيت شمعون؟ إنه رجل شجاع وطيب ولكن ساري لا يرغب أن يحمله ما لا طاقة له به وهو معاق ويداه مشوهتان بسبب حرق تعرض له، ثم ما الذي يستطيع هو وشمعون فعله في غياب التنظيم.

لماذا لا يستجيب للشيء الوحيد الذي يبدو للجميع الآن، ما عداه، معقولا... أن يعود الى بغداد كما يريد بدر منه أن يفعل. لكن إذا كان الذي يتحدث هناك، فيما وراء الشجيرات، على الجانب الآخر من القاطرة والسكة التي تمر خلف دور العمل الشعبي، يتحدث هذا الحديث الطويل مع بدر هو ضابط الأمن فلن يكون بإمكان ساري أن يدور عبر خطوط السكك الى المحطة ليستقل القطار إذ أن وجود ضابط الأمن يعني أن آخرين من الفرقة الحزبية موجودون أيضا. لماذا لا يعود كما جاء... بحافلة.؟ نفسه لا تزال غير متقبلة كليا لفكرة العودة، ولكن فلينسحب الآن من هنا وسيكون لديه الكثير من الوقت، يأمل في هذا، ليفكر مليا فيما يجدر به عمله.

ينتظر الى أن تحين التفاتة من بدر نحوه فيرفع يده، بحركة بطيئة، وحركها حركة توديع غائمة، مثل حركة يد أم زكريا قبل قليل، ثم يلمّ أصابعه في قبضة مرتجفة ألماً، يشاهد كيف ينظر اليه بدر، غير فاهم ما تعنيه هذه الحركة

أول وهلة، ثم يفهم ويفتح فمه ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا ويكون عليه أن يلتفت الى محدثه ثم يعود ليلتفت نحو ساري. يريد ساري أن يقول له وداعا، أوصل سلامي الى أهلي، وسلم لي على والدتك الطيبة، ويفهم بدر، يفهم في أعماقه ما كان يريد أن يقوله ساري له، كما فهم ساري ما أرادت أم زكريا أن تقوله له قبل قليل.

يتجه ساري ، متواريا بين الدور وصف الشجيرات الموازي للسكة وما أن يبتعد مسافة ويصير في مكان يمكنه منه رؤية من يتحدث مع بدر، يقف خلف إحدى الأشجار الضخمة القديمة التي يقال أن الإنكليز زرعوها عندما بنوا محطة السكة القديمة. يستطيع أن يتبين نبهان بطوله الفارع وظهره المقوس قليلا ورأسه الذي يبدو من بعيد غاطسا الى النصف بين كتفيه، يقف خلفه رجلان، ورأى بدر ينظر بين الحين والآخر الى الأمام باحثا عنه. لا بد أن بدر استطاع أن يموه على نبهان سبب وجوده هنا فيرى نبهان يؤشر لبدر أن يسحب القاطرة ويشاهد القاطرة تعود الى الوراء دافعة الشاحنة على الخط المار بمحاذاة مأوى القاطرات، بينما بقي نبهان ومرافقاه في مكانهم يجولون بأنظارهم فيما حولهم، وما أن تبتعد القاطرة الرومانية وتنتقل لتدخل الخط الذي صفت عليه شاحنات قطار البضائع النازل فتغيب عن نظر ساري يستدير ويتوجه بخطوات سريعة الى باب المر.

٩

يصبح ساري على مقربة من الشارع فيستدير ويسلك زقاقا يوصله الى الشارع العام بعيدا عن نقطة التفتيش. في نهاية الزقاق يتوقف عند محل مليء بأكياس التبغ، تنبعث منه روائحه النفاذة، وقد جلس عند الواجهة رجل بزي كردي أمامه عارضة خشبية صغيرة عليها ميزان كبير وآخر صغير وعيارات وزن فيما صفت في الأسفل خلف الزجاج دفاتر لف سجائر بأنواعها وعلب سجائر بالفلتر. ألقى ساري التحية على الرجل وتجاوزه بخطوات وتوقف عند الناصية. نظر الى الشارع الذي تمتد على جانبيه بنايات يذكره بعضها بشارعي الرشيد والكفاح. فكر أن يسلكه سيرا على الأقدام فيصل الى مركز المدينة حيث المرأب المركزي، شعر بحاجة الى المشي والتفكير مليا بالاحتمالات، بما يمكن أن يحدث. يعرف أن هذا الشارع أقصر طريق الى المرأب يسلكه مشيا وكلما سار فيه ابتعد عن الخطر. ثم نظر الى زقاق يمتد أمامه مباشرة من الجانب الآخر، زقاق يفضي الى الشارع الذي كان يسلكه دائما في ذهابه الى المقر ومجيئه منه. من هنا كان يعبر كل مرة ويسلك ذلك الزقاق وينعطف منه الى شارع يفضي الى مركز المدينة أيضا ولكنه يقع على محيطها لمسافة ثم يدخل اليها من جهة المطاعم ودار السينما، ولا يمر فيه إلا

بعدد قليل من البيوت وبيوت أخرى متناثرة في الأرض الفضاء المقابلة له والممتدة حتى منخفض النهر الذي تطل عليه بيوت قديمة ومساحات خضراء حيث كان يتمشى في بعض الأمسيات ويأخذ أحيانا أمينة معه.

تملكته رغبة جارفة بسلوك ذلك الشارع، وفكر كيف سيسير مارا بالمقر وينظر نظرة سريعة اليه، لا يعرف لماذا هذه الرغبة، هل هي فضول؟ أم هو الحنين الذي يسكن الأماكن يجذبه اليه؟ لا يدري، وبدون أن يبذل أي قدر من المقاومة عبر الشارع بتصميم كأن هذا هو كل ما كان يريده، كل ما كان يريده أن يعود الى أهله من هذا الطريق.

يصبح بعد مسير ربع ساعة قريبا من محلات التصليح. قبل أن يصل الى محلات التصليح يلتفت الى يمينه ويمد بصره عبر الشارع، عبر الارض التي تنتشر فيها أجمات وأشجار لا يعرف لها أسماء، وعبر المنحدر حيث البيوت على ضفة النهر ، وبعدها النهر من حيث تلوح له قمم أشجار الغابات عبره، حيث الاستماع الى أكبر عدد من الحمام في أعاليها فرصة ضائعة للإنصات الى نغمات الهديل تأتي من كل جانب وتصنع معزوفة كان يجب أن لا يفوت حضورها، ويفرط بسعادة الدوس على بساط الأوراق الذي يزين الأرض في كل الفصول، يمكنه تخيل كيف كان سيكون الأمر، كان سيمشي بالتذاذ مع أمينة يتلقيان نسمات الهواء تنسل اليهما من بين الجذوع فتحمل اليهما برد اللحاء والورق بينما يتبادلان الكلمات والضحكات ويتعاونان على حمل طيبة.

يتوقف قليلا ثم يعبر الشارع ويتجه الى أجمة في ظلها حجران مستطيلان كان يجلس عليهما هو وناجي في بعض الأيام حين يخرجان من المقر ويتمشيان هنا عصرا. يجلس على الحجر الذي من ناحية جذع الشجرة الكبيرة ويضع الحقيبة أرضا الى جواره. ينظر مرة أخرى الى أقصى الشجر ويتمتم "أنا آسف يا أمينة"، ويخفض بصره نحو الحقيبة التي مالت بثقل الكتب جانبا، ويعود للنظر الى الأفق الأخضر المتعرج البعيد.

استغرب حين خطر على باله في تلك اللحظة أنه لم يحاول أبدا أن يبحث عن كتاب يتحدث عن الحمام، لأول مرة في حياته ينتبه الى أنه لم يحاول أن يتعرف على حياة الحمام بالتفصيل، أن يعرف أشياء عن ذلك المخلوق الذي بمجرد تخيل هديله تمتلئ نفسه بالهديل، يعرف أشياء غير ما أخبرته به أمه. حقا... لماذا؟ هل هو ميله الغالب الى أن يترك الأمور على بساطتها ولا يعقدها؟ أن يبقى الهديل وحكاية أمه في ذاكرته في اقتران جميل قد يفسده إضافة شيء اليه. ما الذي يحتاجه من الحمام وعنه غير الهديل؟

لكن الآن ليس هو الوقت الملائم للتفكير في هديل الحمام. إنه يجلس هنا الآن ليحرر نفسه من هذا الاضطراب التي يتماوج في صدره لعل جلوسه في هذه البقعة الهادئة يساعده في ذلك. لطالما كانت المشاعر الغامضة تشيع الاضطراب في نفسه حين لا يجد لها توصيفا... لا يجد لها إسما يحددها ويجعلها قابلة لأن يُسيطَر عليها، كل شيء يمكن وضعه في مكان وتحديده والسيطرة

عليه ما دام قابلا للتسمية... حتى البشر. هذه المشاعر المتلاطمة الآن في كيانه تكاد تجعله عاجزا عن اختيار اتجاه، مشاعر غامضة مختلطة لا تستقر ولذلك بدا له أن ما فعله غريزيا بالجلوس هنا استجابة طبيعية لحفظ التوازن.

يلتفت نحو المقر الذي لا يحجبه عن النظر اليه شيء من بناء أو نبات. يثير انتباهه وضع المقر. رأى البوابة مفتوحة، وباب المدخل حيث تبادل الحديث مع متّي في آخر مرة مفتوح قليلا أيضا. هل هو مهجور؟ وفي لحظة ما تراءى له أنه رأى نقطة تتحرك، خلف مانع الحشرات لنافذة الحجرة الصغيرة التي كان ناجي يضع فيها أواني الطبخ وعدة الشاي والقهوة.

يتناول حقيبته وينهض ليسير بهمة نحو المقر. يلاحظ أن عددا من محلات التصليح مفتوح، الوجوه التي سيمر بها يعرفها، هم أصحاب المحلات والعمال الذين كان يمر بهم ويسلم عليهم في طريقه الى المقر، ولكنه لا يلقي التحية على أي منهم ككل مرة فهو في الجانب الآخر ومن الأفضل أن لا يجذب انتباه الجميع اليه بل يمر سريعا. يركز نظره على النقطة التي أخذت بالتدريج تتضح، يوجد هناك شخص، يتحرك الشخص متواريا عن النظر. ناجي؟! نعم هو ناجي دون شك، وإن لم يتبين الملامح، ولكن المظهر العام والشعر المرسل الى أسفل الأذن.... وحركته حين توارى، يكاد يجزم أنها لناجي، لا يمكن أن يكون مخطئا.

يغتنم فرصة ازدحام مفاجئ في الشارع عندما تستدير سيارة نقل ركاب مرسيدس لتدخل الى كراج تصليح فتتوقف سيارات من الاتجاهين بعضها يريد أيضا الاستدارة للتوقف أمام محل تصليح فيما يسرع هو الخطو ليدخل المقر آملا أن يكون الجميع في شغل عن الانتباه اليه. يصعد الدرج قفزا ويدخل ثم يتوقف خلف الباب الموارب يختلس النظر الى الشارع. يبدو أن لا أحد انتبه اليه.

يتوجه الى الحجرة التي كان ناجي يجلس فيها دائما يذاكر في ملازمه الجامعية إذا لم يكن يوجد ما يستوجب وجوده في مكان آخر، يقرأ وأحيانا يرفع رأسه إذا علا صوت الرفاق في النقاش أو ضحكوا فيبتسم حتى لو لم يكن يعرف سبب ضحكهم. يدخل ساري وينظر فيما حوله فيقنعه ما يرى أنه لم يكن واهما والشخص الذي رآه عند الشباك ثم توارى لم يكن شبحا، ناجي أو غير ناجي، يوجد هنا شخص يتمنى هو أن يكون ناجي. تبدو الغرفة له نظيفة، والمنضدة قد مسحت بقطعة القماش منذ وقت قريب، يتلمس القطعة فيشعر برطوبتها. ينظر الى أواني الشاي، يوجد قدح نظيف في صحنه عند الطباخ، السكر في علبته كما في الماضي، والعلبة مفتوحة وغطاؤها موضوع الى جانبها، يمد يده الى إبريق الشاي، يشعر ببقايا دفء، يهزه فيحس بثقله وبارتجاج الشاي في داخله. يضع حقيبته أرضا ويخرج على عجل ليتأكد من وجود الهاتف في الممر فيراه في مكانه المعتاد على الرف الخشبي. يمد يده ليرفع

السماعة في رغبة مفاجئة في الاتصال بأهله ثم يغير رأيه. يفتش بحثا عن أحد في القاعة الداخلية التي كانت تتحول في المناسبات شتاء الى قاعة احتفالات وفي الغرفة حيث كانت تجتمع اللجنة المحلية وفي الغرفة الخلفية حيث كان يجتمع أعضاء المكتب الصحفي ومن يزورهم من الفنانين والمثقفين. الأثاث الذي يتذكره كله موجود كالسابق، ولكنه لا يحاول أن يفتح دولابا أو خزانة إذ ينصب اهتمامه على العثور على الشخص الذي رأى خياله في النافذة إلا أنه لا يصدر صوتا أو ينادي بإسم ويمشي بكل ما يستطيع من هدوء إذ لا يستبعد المفاجئات غير السارة في مقر يفترض أن يجده مهجورا وقد قفلت جميع منافذه ولا يمكن لأحد أن يدخله، فما السر في وجود ناجي هنا، إذا كان هو ناجي فعلا كما يرجح، بعد أن ضربت السلطة جميع تنظيمات الحزب؟

يصل الى الباب المفضي الى الحديقة الخلفية. يتريث قليلا... يفكر بأنه أصبح في الجزء الخلفي من البناية، هنا حيث لا يوجد سوى قرار واحد... مواصلة التقدم. ينزل الدرجات الحجرية وهو ينظر الى نوافذ القبو المشبكة بالقضبان، ليس ممكنا له أن يرى شيئا في الداخل لكن الذي يجلس الآن داخل القبو يمكنه أن يراه وهو ينزل الدرج. يستدير نحو باب القبو ويدفعه وئيدا محاولا أن يستوعب بنظره كل ما يسمح له الباب المفتوح برؤيته وأن يعتاد على العتمة بأسرع ما يستطيع. ينزل ثلاث درجات من الدرج الذي يصل الى منتصف ساحة القبو فيشعر برحابته من حوله.

يسمع صوتا مألوفا يأتيه من مكان ما في القعر المعتم:

-أتى ساري متأخرا.

الصوت والعبارة تأكدان له بما لا يقبل الشك أن ناجي هو المتحدث فهذه العبارة قالها بالفصحى أمامه حمزة المصور لأن ساري تأخر عن موعد وظل ناجي يرددها كلما رأى مناسبة لذلك. يتوقف ليرى مكانه جيدا. شيئا فشيئا تتضح له هيئته جالسا الى المنضدة التي كان يجلس اليها المحاضرون في الدورات الثقافية التي كانت تقام في المقر. لا يدري لماذا يتذكر في تلك اللحظة قول محاضر تخرج في جامعة بلغارية باختصاص الإقتصاد السياسي. يتذكر كيف قال وهو يبتسم ويدير القلم بين أصابعه:

-قال أحد أساتذتنا في الجامعة أن المنظرين في المعسكر الإشتراكي عجزوا عن إيجاد نظرية إقتصادية ملائمة للتطبيق في الشرق الأوسط فكل نظرية يضعونها سرعان ما يثبت عدم صلاحيتها له.

يكاد ساري يسمع صدى ضحكات الطلبة العشرة والطالبات الثلاث لهذه الطرفة. ينتظر أن تخفت الأصداء في أذنيه قبل أن يرفع قدمه اليمنى لينزلها على الدرجة التالية، ولكن ناجي ينهض من مكانه ويتقدم نحو الدرج:

-طيلة الأسابيع الماضية كنت أتساءل ما الغاية من إجبارهم لي على الجلوس في هذه البناية الباردة ساعات كل يوم في انتظار أن يأتي أحد؟ ومن ذا الذي سيخاطر بحياته ويأتي؟ ....

يصعد درجتين قبل أن يضيف:

-... من بين كل الناس.... أنت؟! آخر شخص كنت أود أن أراه أمامي الآن هو أنت... لطالما كنت تأتي متأخرا...

يبتسم وأطلق من فمه صوت استسلام لواقع الأمر وواصل كلامه قائلا:

- هل تعرف أني رأيتك من النافذة وتواريت سريعا لكي لا تراني لأني كنت واثقا أنك ما أن تلمحني حتى تدخل بغض النظر عن.... لكنك رأيتني ومع أني هربت منك الى هنا لعلك تعود أدراجك ولكنك لم تفعل وتبعتني الى القبو....

يقول ساري وهو يتأمل ناجي الذي يصعد الدرج نحوه على مهل:

-فلماذا لم تتوار خلف الصناديق؟

-أظنني سمعتك مرة تقول بأنه حتى الرغبة في التخفي لها حدود...

-فلنخرج منها الى النور إذن...

يهز ناجي رأسه مؤيدا:

-نعم.... النور.... النور... هذا هو ما نحن بحاجة اليه.

يمر بساري وتتلاقى عيونهما للحظة بدا لساري خلالها أنه يرى في عيني ناجي شيئا خشي أن يراه طوال الدقائق التي قضيها يستمع الى كلماته كأن المتحدث هو شخص آخر، ساخر بجرأة، ونظرا للظروف التي تكتنفهما، فإن نبرة السخرية ليست في محلها وربما يمكن عدها وقاحة، كأن المتحدث ليس

هو ناجي المهذب موضع ثقته وليس هو من القلائل الذين لا يبالي إذا جلست زوجته مع أحدهم في مكان عام في هذه البيئة المحافظة يتبادلان الحديث ويضحكان.

تلك النظرة هي أيضاً التي تمنعه ، عندما يحاذيه ناجي في طريقه الى الخارج، من أن يمسكه من ياقته بيديه الاثنتين ويصرخ به " ما معنى حديثك هذا؟ ماذا؟ قل وإلا ألقيت بك من أعلى السلم الى أرضية القبو" غير أن عينيه تطالعانه بالأسف بعيد الغور والألم ينز منهما، فترتخي قبضتا ساري ويتحرك جانبا، وهو لا يزال يحدق به، ليفسح المجال له ليمر، ويتبعه هو الى داخل المقر.

يشير ناجي الى الهاتف وهو يتوجه الى حجرته قائلا:

-حسنا فعلت أنك لم ترفع السماعة...

يسأله ساري :

-كنت تراقبني..

يجيبه ناجي دون أن يلتفت أو يبطئ من سيره:

-نعم... وهل علي أن أضيع فرصة مراقبة زائري غير المتوقع والذي كنت أخشى عليه من هذه الزيارة أكثر من...

يتوقف عند الحقيبة ويشير اليها مستفسرا:

-ماذا في هذه الحقيبة؟

-دعك منها الآن وقل لي...

في تلك اللحظة يدخلان الحجرة فيتوجه ناجي ليتخذ مجلسه على الكرسي حيث يجلس عادة. يلاحظ ساري :

-إذاً فقد أعادوا التيار الكهربائي؟

يستدير ناجي نحوه ويشير الى كرسي في زاوية:

-اجلس هناك... ربما يمكن رؤيتك من الخارج إذا جلست هنا.

يفعل ساري كما يشير عليه. لا ينظر اليه ناجي مباشرة، وعندما يسأل ساري يتظاهر ناجي بالنظر الى الخارج من النافذة وهو جالس على كرسيه أمام الخزانة الخشبية.

-هل مر عليك أحد من رفاقنا في هذه الفترة التي تقول انك بقيت فيها وحدك؟

يجيب ناجي وهو يتظاهر بالنظر الى الخارج عبر الشارع:

-واحد فقط... من تنظيمات الريف...

يخرج من درج المنضدة ذات الخشب الأسود علبة سجائر وقداحة. هو يعرف أن ساري لا يدخن ولكن يتمهل قليلا ناظرا اليه قبل أن يخرج سيجارة واحدة لنفسه يشعلها ويأخذ بالتدخين:

-إدعيت إنه من أقربائي جاء يسأل عني فتركوه... الحمد لله أنه فهم سريعا ولم يظهر عليه ما يجعلهم يشكون بادعائي...

عندها ينعقد حاجبا ساري وتتعكر سحنته وهو ينظر اليه نظرة نفاذة يتجنب مواجهتها:

-تقصد أنهم من دائرة الأمن؟

عندها يلتفت نحوه ناجي بحدة ويقول:

-بربك يا ساري ... وما تظن أني أفعل كل هذه المدة؟ أنا محتجز... طُعم لإصطياد أناس هوج مثل حضرتك لا يريدون أن يختفوا بسلام الى أن تُفرج بطريقة ما، ويظلون يدورون الى أن يسقطوا في الفخ...

يردد ساري بعده وقد بانت على ملامح وجهه تعابير الأسى لما يسمعه من ناجي

_الفخ؟

ينحني ناجي مستندا الى المنضدة وهو ينظر الى ساري باسترضاء:

-يا ساري ... لطالما حدثتني أنت نفسك عن العقلانية في التصرف فهل ترى من العقل، وقد نجاك الله منهم، أن تجازف بالعودة الى هنا. من جانب آخر فإن لعائلتك الآن عليك حقا أكثر من أي حق آخر.

-بهذا المنطق فضلت سلامتك وسلامة عائلتك واشتغلت مصيدة لهم؟ كم واحدا اصطادوا بك؟

-أنظر.... اعتقلوني من البيت وأي معلومة تظن أنهم حصلوا عليها مني كانت موجودة عندهم أصلا، وكل الذي فعلوه أنهم أروني إياها.

-ألم تسلمهم شيئا؟ صور مثلا؟

-الصور كانت جزءا مما أروني إياه... هؤلاء ليسوا بعثيي ١٩٦٣. لقد تصرفوا بحنكة وذكاء وتركونا طوال هذه السنوات نكشف لهم أنفسنا وتنظيماتنا وأوراقنا ورقة ورقة. إنهم الآن يعملون على مهل وبمنتهى الراحة، ليسوا مستعجلين، ولا يطاردون بشكل محموم من لم يقع في أيديهم، فكل ما يحتاجونه من معلومات عنه في حوزتهم ويفكرون أنه لا بد أن يأتي اليهم برجليه يوما أو يفر الى خارج العراق وكلتا الحالين لصالحهم. أما المقاومة المسلحة فلا تخطر على بالهم بالمرة لأنهم يعرفون أنه لا توجد أية فرصة لحدوثها. إنها وهم من أوهام السذج أمثالنا.

-فمن أين حصلوا على الصور إذن؟ أنت كنت على علاقة وثيقة بحمزة....

-وما أدراني؟ ربما ألقوا القبض عليه، أو حصلوا عليها أثناء مداهمة، أو بأية طريقة....

ويرجع في جلسته الى الوراء ليستند الى ظهر الكرسي ويضيف:

- المهم... خيروني بين أن أُلقى في السجن أو أن أحضر يوميا الى المقر كالسابق...

-وما أن يأتي أحد الى هنا لسبب ما أو يمر من الشارع تتصل أنت بالهاتف وتبلغهم..

-لا حاجة أن أبلغهم إذ يأتي كل يوم منهم إثنان أو ثلاثة يبقون في الغرفة المجاورة بضع ساعات وينصرفوا بعدها... لحسن الحظ ان الثلاثة الذين جاءوا اليوم انصرفوا مبكرا على غير العادة...

-وأنت؟ ما هو دورك إذا كانوا هم موجودين بأنفسهم؟

-يتوقعون مني ان أتعاون معهم وأتعرف على المشتبه بهم وأبلغهم في حال رأيت أحدا في الشارع له علاقة بالحزب، وأشياء مثل هذه... طلبوا مني ان أتجول في أنحاء المقر بحيث أكون مرئيا. طبعا هم يرون أن وجود شخص مثلي هنا الآن يعطي لمن له صلة بالحزب شعورا بالإلفة والطمأنينة ما يجعله يدخل المقر ظنا منه أنه لا يزال مقرا للحزب، أو يدخل بدافع الفضول....

ثم ينظر الى ساري بابتسامة شاحبة وأضاف:

-... ولا أدري ما كان دافعك. أهو الشعور بالإلفة أم بالفضول...

-ليس أياً منهما.

يقول ناجي دون أن تفارق شفتيه الإبتسامة الشاحبة:

-على كل حال... كنت أتصور أنهم مبالغون في إجرائهم هذا وقد أبقوا العمل به مدة أطول من اللازم إذ من المنطقي أن كل الناس، وليس الشيوعيون فقط، عرفوا بأن السلطة وجهت ضربة الى تنظيمات الحزب، فمن ذا الذي سيأتي، والحالة هذه، بعد مضي أكثر من أسبوعين الى المقر؟ ولكنهم،

كما بينت أنت بمجيئك اليوم، كانوا مصيبين.... مصيبين في أشياء كثيرة يا ساري ...

يرفع رأسه فيرى ساري موجها نظرة ساهمة الى مكان في ركن الرف الأسفل من الخزانة، ويعرف الى ماذا ينظر. يلتفت الى السكين التي يضعها عادة في علبة حليب فارغة ونصلها الى الأعلى. ترتجف شفته السفلى رجفة خفيفة سريعة قبل أن يعود الى جلسته السابقة، ولكن دون أن ينظر الى ساري بل يصوب نظره الى باطن أصابع يده اليمنى التي كان للعمل في تحضير الشاي أثره عليها، خصوصا على رؤوس أصابعه:

-هذه السكين... لقد شحذتها اليوم الى درجة أكثر من الضروري لتقطيع اللحم والطماطم والبصل حتى في الأيام الخوالي. قضيت ساعة أشحذ بها بالمبرد... قتلا للوقت.

ثم يرفع رأسه ناظرا الى ساري :

-إنها ذباحة الآن...

ويضغط شفته السفلى الى اسنانه قبل أن يواصل كلامه:

-... هل تفكر بقتلي يا ساري ؟

يجيب وهو ينظر النظرة الساهمة نفسها الى ناجي:

-كلا.... لكني أفكر كم هم مطمئنون اليك بحيث يتركون تحت يدك أداة يمكن أن تكون ذباحة...

تتسع ابتسامة ناجي:

-إنها مجرد سكين.

-ترى... ألم يتركوا عندك بندقية أو مسدسا؟ ما المانع ما دمت أصبحت رجلهم في المقر؟

يضحك ناجي بوهن:

-لا.... هذه لا.

- عمو عبد العزيز... هل لديك خبر عنه؟

لا يجيب ناجي بل يظل يفرك ظاهر يده اليمنى بباطن يده اليسرى فيكرر ساري عليه السؤال بحزم عندها يجيب:

-توفي... يقولون أنه أصيب بجلطة..

-في دائرة الأمن طبعا...

يأخذ ناجي نفسا عميقا ويهز رأسه:

-لا أدري... ربما في بيته.

يضيق ساري فتحتي عينيه ويضغط على الكلمات وهو يسأل:

-أصدقني القول.... هل كنت منذ البداية وكيلا للأمن؟

يهز ناجي رأسه مستنكرا السؤال:

-وهذه لا. ظنك هذا غير صحيح.

ثم بعد أن ينظر الى ساري مليا وهو يتهيأ للنهوض:

-هل تشعر برغبة في قتلي؟

أجاب ساري بلا مبالاة:

-كلا... ولا يوجد داع لقتلك.

يتوجه الى الحقيبة ويحملها. يسأله ناجي:

-ماذا فيها. كتب؟

يهز ساري رأسه بالإيجاب.

-دعها هنا. ما حاجتك اليها. ستعطلك وربما تسببت لك في مشاكل. سأقول أنها كتبي وجلبتها من البيت أو أقوم بحرقها..

-لن أدعها هنا. لم يعد هذا المكان مناسبا لها.

-الى أين تذهب بها إذن؟

-سأتركها في مكان.

-أين؟ كل مكان يمكن أن يكون مراقبا؟

ينظر ساري الى ناجي نظرة عدم رضا لإلحاحه بالسؤال:

-سيكون نهر دجلة مناسبا تماما. سأسلمها اليه.

وعندما يهم بالمغادرة يمسكه ناجي من زنده ويقول:

-ساري ... أنا أعرف ما يدور بخاطرك. ربما تراودك الآن فكرة عبور النهر والتوجه نحو الجبال. لا تحاول. لن يكون هذا ممكنا دون مساعدة تنظيم ودون دليل. عد الى عائلتك... عد الى بغداد. صدقني أنا لا زلت مؤمنا بما

تؤمن به، وأنا لازلت ناجي الذي تعرفه، ولكني رأيت الإبقاء على نفسي وعلى أهلي بمجرد توقيع ورقة تعهد أفضل من دفع السلطة الى تصفيتي. سيكون لنا زمن قادم وفرص أفضل ربما.

يبتسم ساري باستخفاف ويقول:

-تبدو لي هذه الكلمات الأخيرة مناسبة لنهايات القصص والأفلام.. لكن، حسب ما أذكر، لم أقرأ قصة أو أشاهد فيلما تقول شخصية في نهايته هذه الكلمات..

يفتح ناجي فمه ثم يقول بخيبة أمل تخالطها نبرة عتب:

-أنت لا تصدق كل ما قلته لك.

-حتى لو صدقتك فإن ما قلته لا يناسبني. هل تعرف..

يحول الحقيبة الى يده اليسرى ويضع يده اليمنى على كتف ناجي:

-... مع ذلك... كلانا لا يستطيع شيئا حيال وضعه، وأعرف معنى أن يكون الإنسان غير قادر على أن يكون شخصا آخر، ولذلك صدقني، أنا لا أكرهك.

عندما يصبح ساري عند الباب يقول له معروف:

-بلغ سلامي الى زوجتك.... وقبّلْ طيبة نيابة عني.

يتوقف ساري ويستدير ناظرا اليه:

-لا تذكرهما على لسانك.

ثم ينزل الدرجات ويخرج من البوابة ويسير في الطريق تحت شمس العصر.

١٩٧٩

*

تنقطع أخبار ساري أيوب صالح المختار بعد ذلك. لا يدري أحد الى أين اتجه والى أين وصل. بعد العام ٢٠٠٣ يتمنى من بقي من أهله ومعارفه أن يروه عائدا بعد غياب قد يكون تعذر عليه خلاله الإتصال بهم وهو في منفى من المنافي. الشخصان الأكثر أملا في رؤيته هما أمينة المرأة الأربعينية (توفيت مؤخرا عن عمر ناهز الستين) وابنتها طيبة الطالبة في الثانوية (تخرجت بعد ذلك في كلية الهندسة وتزوجت من إبن عمها). لكن ذلك الأمل لا يتحقق.

٢٠١٩

نبذة عن المؤلف
جودت جالي



من مواليد ١٩٥١ في بغداد بقرية الرستمية. مارس هواية الرسم والتمثيل والكتابة للمسرح في النشاطات الطلابية والشبابية وكتب الشعر ونشره وحاز على العديد من الجوائز في المهرجانات الشبابية والطلابية وجائزة تقديرية من إذاعة صوت الجماهير. له قصائد وقصص ومقالات منشورة منذ أوائل السبعينات. عضو اتحاد الأدباء وله ثمانية كتب:

عن دار الشؤون الثقافية

*(نصوص عن بول ريكور) مقالات مترجمة عن فكر ريكور بقلم ريكور وكتاب آخرين. ٢٠١٢.

*(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) مقالات مترجمة لعدة كُتّاب. ٢٠١٦.

وعن دار ضفاف:

*(التودد الى الزوجة) ٢٠١٨ مختارات قصصية مما ترجمه خلال ثلاثين عاما.

*(فك الحزن) ٢٠١٧ مجموعة قصصية.

*(ماروٰه العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) ٢٠١٨ مجموعة قصصية.

*(جهات السينما الأربع) ٢٠١٧ مقالات في أفلام سينمائية.

*(الهجاء السياسي في الشعر العراقي) ٢٠١٧ مقالات في الأدب والفن والثقافة عموما.

وعن دار المأمون:

*(حرب المهرجين) ٢٠١٩ مختارات قصصية لكتاب عالميين.

وله قصة (ممشى الكالبتوس) في كتاب مشترك (مسابقة سافرة جميل حافظ للقصة القصيرة دورة ٢٠١٧).

منح شهادة تقديرية من اتحاد الادباء والكتاب في العراق.